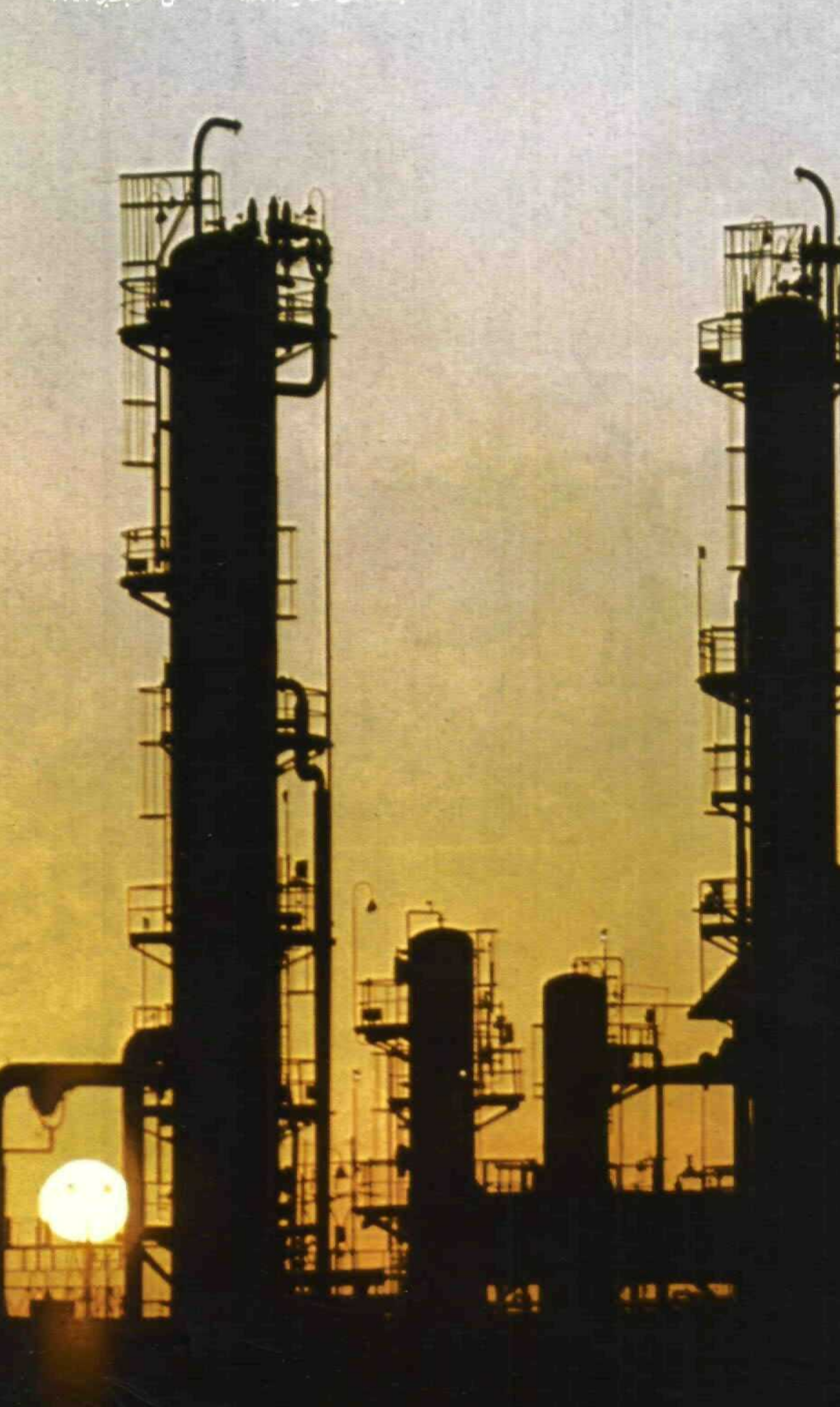
قافلة الزيت

جمادى الثانية ١٣٨٨ اغسطس - سبتمبر ١٩٦٨



بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد السادس المجلد السادس عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

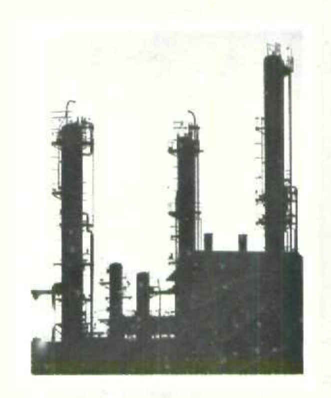
رئيس التحرير والمدير المسؤول منصور مدني
المحرر المساعد عوني أبوكشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف

منظر ليلي لأحد مرافق معمل التكرير في رأس تنورة .

تصوير : برنت مودي



مطابع المطوع Al Mutawa Press
P.O.B. 343, DAMMAM, SAUDI ARABIA - TEL. 4331 - CABLE: ALMUTAWAPRESS

محتويات العدد

الصفحة

بحاث.. لا آلات تسجيل

يختلف الناس في تحديد معايير تطور الأمم ، وتقييم مستوى تقدمها باختلاف وجهات نظرهم ، فمنهم من يقيس تقدم الأمة وتحضرها من الوجهة العلمية بمقدار ما لديها من معاهد وجامعات ، ومنهم من يبني تقييمه على مظاهر الصناعة ومعطياتها الحضارية بعدد ما لديها من مصانع . وهناك معايير أخرى لسنا بصددها الآن .

ترتفع صيحات تطالب بافتتاح المزيد من الجامعات والمعاهد ، استنادا على المعيار العلمي ، فلا كيان لأمة بدون العلم ينهله ابناؤها من منابعه الأصيلة . والجامعات والمعاهد — في نظر هؤلاء — دور لصقل الكفاءات ، وتفجير الطاقات ، والعلم غذاء الروح والفكر ، وباني الأمجاد والحضارات ، لا تستقيم بدونه حياة حرة كريمة لفرد أو لمجموعة ، وبه تبلغ الأمم ما تصبو اليه في مدارج الرفعة والرقي .

وصيحات أخرى ترتفع ، مناهضة لسابقتها ومعتمدة على المعيار الصناعي لتقدم الأمم ، تطالب بانشاء المعامل والمصانع ، يعتقد أصحابها بأن المصانع تأتي قبل الجامعات في مراتب الأهمية. فهي التي تدفع الى فتح الجامعات التي تحتاجها مجموعة معينة في وقت معين . والعلم — في رأي هذه الفئة — اداة للرياضة الفكرية والعمل اليدوي معا . فاذا قصر على الفكر — كما هو الأمر في معظم الجامعات — عقم ، واذا تجاوزه الى اليد أخصب . فكان الاختراع والاكتشاف .

وكلا الفريقين مصيب في بعض ما ذهب اليه ، فعصرنا — عصر التقنية — أصبحت فيه الجامعات والمصانع مرتبط أحدهما بالآخر كما لم تكن كذلك يوما ، وأصبحت العلوم النظرية والتطبيقية وحدة متماسكة وضرورة لا غنى عنها لأمة ترنو الى التطور والتقدم .. ولا خير في تعليم لا يسبقه تخطيط ، ولا يقترن بتطبيق .

وكما تغير مفهوم العلم تغيرت طرق ايصاله الى طالبيه . فبالأمس كنا نجلس في مقاعد الدرس نستمع الى شرح المعلم لساعة أو بعض ساعة ، تمضي فيأتي غيره يتحدث في موضوع آخر .. ونحن سكوت نستمع ، فان بدرت منا حركة لكلام أمرنا بالصمت والانصات الى شيء قد لا نعي منه شيئا . ولذلك كان علينا حفظ كثير من النصوص عن ظهر قلب . وكأننا آلات تسجيل تكتنز بما يختزن فيها ، فاذا جاء الامتحان طرحت ما لديها دونما فهم أو ادراك أو تصرف .

اما اليوم فقد افتقد الطلاب الطيور التي كانت على رؤوسهم ، وأصبحوا — في كثير من المعاهد والمؤسسات — هم الذين يتكلمون من بعد اختبار وبحث وتدقيق ، والأساتذة ينصتون ويراقبون ، فاذا حاد طالب عن الطريق السوي أعادوه اليه وأرشدوه الى الطريقة المثلى ، ثم تركوه يغوص وحده أو مع رفاقه — في بطون الكتب وعيون المراجع ، أو في خضم المشاكل الحية ينقدون ويحللون ويقارنون ويمحصون حتى يصلوا الى الحقيقة بأنفسهم ، فترسخ في أذهانهم رسوخا ثابتا . ومعظم عمل الطلاب من هذه الفئة جماعي فيما بينهم ، وكأنهم في ذلك يطبقون قول القائل « رأيان خير من رأي واحد ، وثلاثة آراء خير من رأيين » .

وهم في بلوغهم الحقيقة يجدون لذة وايما لذة ، فتتضاعف رغبتهم في العلم والبحث والتدقيق ، ويزدادون ثقة بأنفسهم ، ونظرة صائبة دقيقة نحو الأمور لا تتأثر الا بالحقائق ، ويدركون ميزة العمل الجماعي ، فيشقون طريقهم الى معترك الحياة ، وخضمها الرحيب ، مجندين بسلاح المراس والخبرة والمران ، من أجل النهوض بأمتهم والارتقاء بها في مدارج التطور والرقي والازدهار .

وبعد ، فما أحوج الأمم في يومنا هذا وفي غدنا الى جامعات ومصانع معا والى بحّاث لا آلات تسجيل ■

رئيس التحرير

مشاهد من تاريخ مكة

٧

بقلم الاستاذ احمد السباعي

بين عهدين ..

ألا تمشي ؟

لا .. لا يهولك هذا الغبار المنعقد فليس لنا به من شأن .. واذا بدا لك الا أن تكشف قصته فدونك هذه الربوة .. انها تطل على سوق الحزورة حيث تتشابك الدروب لتنحدر في جادة واحدة الى مساقط المسفلة .

أترى ؟ انهم نفر من آل صيفي يتواثبون في فم الدرب الذي أفضى بنا يوم أمس الى باعة الأصنام .

انها دون شك حمية الجاهلية ربما اثارتها قينة من فتيات صقلية أو بنات الروم ، فهن كثيرات في مداخل هذه الدروب المتفرعة من سوق الحزورة .. ربما عشق الرجل من آل صيفي ذات دل منهن ، فتأبى حميته الا أن يمنعها عن غيره .

وتستطيع الآن أن تفهم .. فهذا النفر من بني عبد العزي يتجمهرون أمامـــك تحت سقيفة الحناطين في العدوة الأخرى من السوق ، لعل بعضهم حاول الفتاة ، فثـــار غريمها مـــن آل صيفي ، وثار لثورته من قومه هذا النفر الذي تشهد ، كما ثار من بني عبد العزي لصاحبهم من ترى . فاحتدم الجدل واشتبك القتال الذي انعقد غباره قبل أن ينفض . واحسب انه ما انفض الا ليستأنف من جديد ، بدليل هذه الحركات الهستيرية التي تشهدها بين العدوتين على حواشي السوق .

ألم أقل لك قبل اليوم انه مجتمع محلول ؟ وانه رغم مميزاته الحضارية كان ينتظر من ينقذه من ترهاته ومباذله .

وسألتني قبل اليوم عن قصة هـذا الدرب (درب باعة الأصنام) في تجاهل من يعرف أن قصاد « مكة » وحجاجها من سائر الأطراف في بوادي العرب كانوا لا يودعونها قبل أن يتزودوا من أصنام هذا الدرب بجملة ، ينصبون بعضها في بيوتهم ليتوجهوا بعبادتهم اليها ، أو يهدون منها الى من يبرونهم بعبادتها من ذوي قرابتهم وأهليهم .

لك أن تضحك من كل هذه المهازل ، على أن لا تنسى موقف النبي – صلوات الله عليه – من أباطيلها . لقد آلمه ما يرى فأحس احساسا صادقا انه مسئول عن القضاء عليها . وكان لا يملك من دنياه الا ايمانه ، والا احساسه بأنه مختار لأعمال هذا الانقاذ .

هو ذا على صخيرات أبي قبيس في مدارج الصفا : « يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد : ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين » .

كانت صيحة ، ولكنها صيحة من لا يملك الا أن ينذر نفسه لها . لقد تقاذفته السخرية يومها ، وتنادته الأصوات المغرضة ، وأهاب به أبو لهب من جوف الوادي : « تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟! » « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

ترى هل يفت في عضده مثل هذا الصدى العاتي ؟! لا ، فهو أكبر من هذا وأرفع .

ثمت فرق بين أن تبز اقرانك وتبدو عظيما في أمتك وبين أن تطبع هؤلاء الاقران بطابعك وتصنع أمتك من جديد . فأنت في الأولى عظيم في التاريخ ، وأنت في الثانية صانع للتاريخ .

وعظماء التاريخ حفل التاريخ بهم ، واحتشدت بسيرهم فصوله المطولة ، أما صانعو التاريخ فأولئك هم الندرة التي لا يجود بها الدهر في مئات الأجيال ولا يظفر بهم التاريخ الا مرة بعد ملايين من فصوله .

وسيدنا العظيم ، الذي غضب لترهات مرت بك في مكة ، كان صانعا للتاريخ ، بل وأكثر من صانع اذا شئت ، فهو لم يطبع جيلا واحدا ، ولم ينشىء أمة واحدة ، ولم يصبغ قلمه قارة واحدة في خارطة العالم . انه طبع دهورا بكاملها ، دهورا انطوت فيها أجيال ، وستنطوي فيها أجيال وأجيال ، ولا يزال لطابعه جدته ، كما لو لم تمض عليه الا ساعة من نهار .

وانه أنشأ على سطح الأرض أمما لا تحصى ألوانها ، ولا تعد لغاتها ، ولا تستقصى أبعاد مساحتها ، أنشأهم انشاء جديدا أفنى فيه كل ما ورثوا من أديان ، ومـا عرفوا من عادات وأخلاق ولغات .

وان قلمه مضى على ثلثي خارطة العالم في أقل من مائة عام مضيا استحالت بعـده آلاف الكنائس ، ومئات البيع ، ومئات الألوف من الهياكل الباطلة الى مساجد يذكر فيها اسم الله وحده لا شريك له .

انه ابن آكلة القديد بمكة .. كأنه بين عيني الآن – عليه السلام – بين هضاب أبي قبيس يرسل الصيحة يهتز لها أبو قبيس ، وتدوي لها شعاب الهواشم .

كأنه بين عيني الآن يرسل الصيحة في هذه القفار القاحلة بين المروتين فيسمع صداها يدوي في الهند والتركستان الى روسيا وبولونيا وبلاد البلقان والترك ، وفي برقة والجزائر ومراكش الى أدغال أفريقيا جنوبا الى أطراف أوربا شمالا .. دويا يهيب بالأديان فتخر طائعة بين يديه ، والعقائد الموروثة فتستحيل أمامه هباء ، والعصبيات القبلية والجنسية واللغوية واللونية فتأتي اليه صاغرة يصوغها كما يشاء ، ويطبعها بما يشاء .

أتسألني ؟؟

دونك اذن رأيي ، فأنا ممن يعتقد انه اذا اعتبر تقدير هذا السيد في أي بلد من العالم ايمانا فانه بالنسبة الينا ونحن بني هذه القفار التي أقلته يجب أن يعتبر تقديره لدينا أكثر من ايمان .

أتستغرب ؟؟

لـم يا صاحبي ؟! وأنت تعرف أن نحو خمسمائة مليون مسلم تتجه اليوم نحو بلادنا نتيجة لما بذل سيدنا العظيم ، ونحو خمسمائة مليون مسلم تنطق اليوم شهادة الاسلام بلغتنا نحن ، استجابة لصيحته التي دوى صداها من فوق الصخور التي تظلنا .

تمضي الى اليوم أربعة عشر قرنا ونحن لا نزال في مكاننا ، تقدس بلادنا هذه الملايين وتنظر الينا باكبار ، نتيجة لصنيع قرشي واحد . لا تزال بنيته المقدسة قائمة بيننا .

أتسمعني ؟؟

يذكرني هذا بيوم عاصف ماطر اضطرتنا فيه قسوة الطريق في بلد شقيق الى أن نلجأ الى خباء فلاح صادفنا . وأنا لكذلك واذا العواصف تسوق الينا سيدة من شمال أوربا عاق سيارتها ما عاق رحلتنا فاقتحمت الخباء علينا . واشتهت فيما يبدو أن تقطع الوقت بالحديث معنا ولكنها كانت لا تجيد غير لغة بلادها ، ولم يكن بيننا من يعرف لغتها ، فبدأت لغة الاشارة تؤدي دورها بيننا .

كان يهمها أن تعرف البلاد التي ننتمي اليها ، فقلنا أننا عرب . وحاولنا أن نضغط على كل حرف من كلمتنا على أمل أن تكون قد درست في الجغرافيا ما يساعدها على فهم الكلمة أو قرأت في صحف بلادها بعض ما يقرب لها معناه ، ولكـن جهودنا باءت بالفشل فآثرت وآثرنا معها الصمت .

ولم تمض الا لحظات حتى عمدت الى « ألبوم » كان في محفظتها ، فشرعت تقلب بين الرسوم والصور التي اكتظ بها ، فاذا بينها صورة رجل يصلي . فأسرع أحدنا وكان يجلس الى جانبها ، فأشار لها بكلتا يديه الى الجهة التي يصلي اليها الرجل ليفهمها اننا أهل هذا البلد الذي يتجه اليها المصلي . فما راعنا الا صوتها يندّ عن فرحة صارخة « مكة .. محمد .. محمد .. مكة » .

أي .. انها « مكة » وانه « محمد » .

ومن غير « مكة » حري بهذه الشهرة ، ومن غير « محمد » قمين بهذا الصيت الحي .

فلنكبر فضل محمد ، وتعاليمه ونواهيه فينا ، وقبلته بين أيدينا ، أكثر مما يكبره كل ناطق بالشهادتين في تاريخ الأرض .

وبعد .. أتراني يا صديقي بالغت ؟؟

كنت أتمنى لو اتسع النطاق اليوم أمامي ، اذن لاستعرضت واياك بعض المواقف العظيمة التي امتاز بها صلوات الله وسلامه عليه في لقطات خاطفة لنتبين العظمة على حقيقتها ولكن جلستنا اليوم شارفت على نهايتها .

لا .. لا تظنني أنوي سرد ما ترجم له في فصول مستوفاة منظمة ، فذلك سبيل عني بـه فطاحل ، وتوسعت فيه أقلام وأقلام ، واكتظت به أسفار وأسفار .

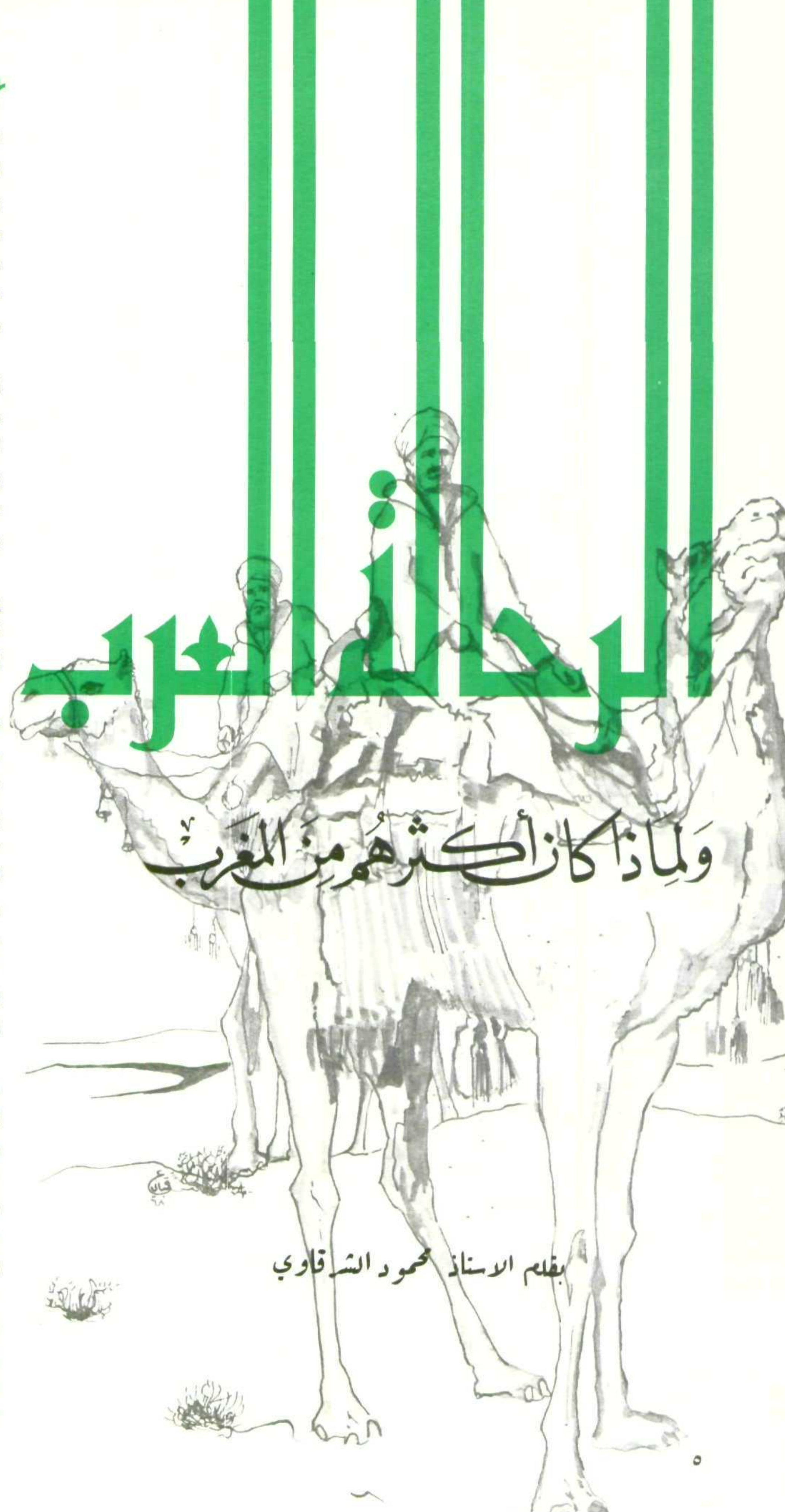
ولكنها لقطات ولقطات خاطفة ، فالى جلستنا يوم نستأنفها

■

الرحالة العرب

وَلِماذا كانَ أكثرهُم مِنَ المغرب

بقلم الاستاذ محمود الشرقاوي



عندما كنت أشتغل بتأليف كتابي « رحلة مع ابن بطوطة من طنجة الى الصين وافريقيا والأندلس » لفت نظري ذلك الشغف القوي عنده بالرحلة والاصرار على السفر والتعرف الى الناس والبلاد مهما لقي من المشقة والأخطار في البر والبحر ، وهو شغف نجده في مواطن كثيرة من أحاديثه في رحلته .. وهي مخاطر مهلكة ، لولا لطف الله ، ثم شجاعته ، وحيلته ، وصبره .

ثم أدركت من أحاديثه عن الرحالة الذين لقيهم في تلك البلاد الكثيرة الواسعة التي جابها ، أن غيره من بلاد المغرب الأفريقي كانوا يجوبون تلك البلاد أيضا . ويذكرهم ابن بطوطة حين يلتقي بهم أو يعرف أخبارهم ، وبعضهم لا نعرف عنه كثيرا ، وقد لا نعرف غير ما كتبه ابن بطوطة عنه .

بل ان بعض الرحالة من بلاد المغرب الأفريقي يشارك ابن بطوطة في تلك الرحلة البعيدة التي نظن أنه انفرد بها بين الرحالة العرب ، وهي الرحلة الى بلاد الصين .

يذكر ابن بطوطة أن من أسعد اللحظات التي مرّت به في رحلته كلها حين لقي في مدينة من مدن الصين الكبيرة رجلا يستأذن له ليدخل عليه ، فلما شاهده تأمل وجهه يطيل النظر فيه ، وقد بدا له أنه رآه من قبل . ثم يتعرف كل منهما صاحبه ، فاذا ضيفه هذا هو مولانا قوام الدين السبتي ، من مدينة سبتة من بلاد المغرب ، وبكا كلاهما للقاء صاحبه في هذا البلد البعيد . وحقيقة أن أكثر الرحالة العرب كانوا من بلاد المغرب الافريقي ، وهي حقيقة واضحة في تاريخنا الجغرافي الأدبي ، وهي محل سؤال يستحق التفكير للجواب عنه .

نجد من الرحالة أبناء هـذه البلاد ، قبل ابن بطوطة بأربعة قرون ، محمد بن يوسف الوراق ، الذي مات في سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣م) ، وقد عاش في المغرب والأندلس ، وكان من نتائج رحلته كتابه « المسالك والممالك » ، وقد فقد الكتاب ، ولكن رفيقه المؤرخ البكري حفظ لنا مقتطفات كثيرة منه ، كما حفظ عنوان الكتاب نفسه .

ونجد من أبناء هذه البلاد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الرحالة الأندلسي ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي ، وقد طاف بلاد الأندلس ، وزار قسما كبيرا من أوروبا ، كفرنسا ، وألمانيا ، وغيرهما من بلاد شرق أوربا .

وتجد من أهل هذا المغرب العربي الرحالة الأندلسي اسحق بن الحسين ، الذي ألف كتابا أسماه : « آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان » ، وقد نشرته المحققة الروسية أنجليا كوداتسي ، وفيه وصف للحرمين الشريفين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبيت المقدس ، والعراق ، وفلسطين ، وايران ، ومصر ، والمغرب ، والأنـدلس ، ثم روما والقسطنطينية وتركيا وبعض بلاد الهند .

ومنهم الرحالة أحمد بن محمد العذري ، ٣٩٣ — ٤٧٨ هـ (١٠٠٣ — ١٠٨٥م) الـذي زار مكة المكرمة ووصفها ، بعد أن أقام فيها تسع سنين ، وبلاد المشرق ، وألف في ذلك كتابه « نظام المرجان في المسالك والممالك » .

ومنهم الرحالة الكبير أبو عبيد عبد الله البكري القرطبي ، الذي أورد في كتابه « المسالك والممالك » وصفا جغرافيا لشمال افريقيا ، ومصر ، والعراق ، وبحر قزوين ، وبعض بلاد أسبانيا . وقد طبع كتابه ذاك ، وترجمه الى الفرنسية المستشرق الفرنسي « دي سلان » .

ومنهم الرحالة الأشهر الادريسي أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الذي ولد سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م) وقد زار بلاد الاندلس ، ومراكش ، وسواحل فرنسا ، وانجلترا ، ومدينة لشبونة في البرتغال ، وايطاليا ، وألمانيا ، وروسيا ، وبولندا ، وجزيرة صقلية ، وآسيا الصغرى ، ووصفها ، وألف كتابه الكبير : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وجاء حديثه عن صقلية وملكها « روجر الثاني » من أهم وأجود ما كتب عنها وعنه في العصور الوسطى ، كما رسم خريطته المشهورة للعالم ، وهيئة الأفلاك ، والكواكب في نموذج فريد . وكان « روجر الثاني » هذا هو الذي استدعى الادريسي من شمال افريقيا وطلب اليه وضع كتاب في الجغرافيا ، كما طلب اليه صنع شيء يمثل شكل الأرض ، فصنع له كرة من الفضة .. وكان ذلك في الوقت الذي لم يكن العالم فيه قد عرف كروية الأرض ، ولم يثبت صدق نظريتها .

وقد التحق الادريسي بخدمة الملك روجر وعمل في بلاطه ، وكان صديقا له .

ومنهم أبو حامد الغرناطي (٤٧٣هـ — ١٠٨٠م) الذي زار مصر ، وجزر سردينية ، وصقلية ، وبغداد ، وايران ، وبحر قزوين حتى وصل الى مصب نهر الفولجا . ووضع كتابه : « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » .

ومنهم الرحالة الأديب الشاعر محمد بن جبير الأندلسي ، المولود سنة ٥٤٠هـ (١١٣٥م) . وقد زار الاسكندرية ، والقاهرة ، وصعيد مصر ، كما زار جدة ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والكوفة ، وبغداد ، وسامراء ، والموصل ، ثم زار حلب ، ودمشق ، وبعض بلاد الشام ، ووصفها وهي تحت حكم الصليبيين ، فجاء حديثه عنها وثيقة تاريخية كبيرة القيمة . وبعد ذلك ركب سفينة فزار صقلية في طريق عودته الى غرناطة التي بدأ منها رحلته قبل عامين . وقد قام برحلة أخرى بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، وثالثة ليسلو زوجته الراحلة . ولكن هاتين الرحلتين لا نعرف عنهما شيئا ، ثـم مات ودفن في الاسكندرية سنة ٦١٤هـ (١١٨٥م) . وتعرف رحلته الأولى باسم : « اعتبار الناسك في ذكر الآثار القديمة والمناسك » .

وكان ابن جبير حين قام برحلته يرافقه رحالة آخر هو أبو جعفر أحمد ابن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي ، من بلدة أندة ، بولاية بلنسية في الأندلس ، وكان أبو جعفر هذا طبيبا ، له في الطـب « تقييدات » مفيدة ، مع مشاركة في فنون العلم ، كما قال المقرّي في الجزء الأول من كتابـه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .

ومنهم الرحالة أبو الحسن الغرناطي الذي اشتهر بابن سعيد ، وقد ولد سنة ٦١٠هـ (١٢١٤م) ، وقام برحلاته المعروفة في أكثر البلاد الاسلامية من المغرب الى مصر ، وسورية ، والحجاز ، والعراق ، وارمينيا ، ثم مات في دمشق سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) ، على أرجح الروايات ، أو فـي تونس سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) في رواية أخرى .

ومنهم نور الدين علي بن الوزير ، قال عنه صاحب « فوات الوفيات » : « .. علي بن موسى ابن سعيد المغربي الأديب نور الدين ، ينتهي الى عمار بن ياسر . ورد من المغرب ، وجال في الديار المصرية ، والعراق ، والشام ، وجمع وصنّف » . وهو صاحب كتاب : « المغرب في أخبار المغرب ، والمشرق في أخبار المشرق ، والمرقص والمطرب ، وملوك الشعر » . توفي بدمشق في شعبان من سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) .

ومنهم الرحـالة محمد بن رشيد الفهري الأندلسي ، وقد ولد سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) ، وخرج من المرية ، فسار في الشمال الأفريقي ، ونزل مصر ، ثم بلاد الشام ، والحجاز ، ووصف البلاد التي زارها في رحلة اختار لها اسما طريفا ، هو : « ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجهة الى الحرمين ومكة وطيبة » ، ورحلة أخرى غير هذه في بلاد الأندلس .

ومنهم محمد بن أحمد التيجاني الذي خرج من تونس عام ٧٠٦هـ (١٣٠٩م) فزار في طريقه الى الحج مصر ، وجزيرة صقلية .

ثم جاء بعد ابن بطوطة من أهل المغرب المؤرخ الرحالة«ابن خلدون» صاحب فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، وكاتب المقدمة والتاريخ . ولد سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) ومات سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) .

وبعده قام من أهل المغرب أيضا الرحالة الجغرافي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الذي توفي سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤) . وقد وضع معجما جغرافيا نقد فيه سلفه العظيم الادريسي .

ثم جاء مغربي آخر نال شهرة غير قليلة هو « ليو الأفريقي » الذي يكاد يكون آخر الرحالة والمؤلفين الكبار في محيط الرحلات والجغرافيا في تلك البلاد . ويعرفه أهل البلاد العربية باسم الحسن بن محمد الوزاز الزياتـي الفاسي ، ولكن اسمه يرد في كتبه التي صنفها في أوربا على أنه « يوحنا الأسد الغرناطي »(١) . والأرجح أنه ولد في غرناطة . وبعض مؤرخيه يقول أنـه ولد في فاس ، وقد عرف الحسن بن الوزّاز باسم « ليو الافريقي » لأنه وقع في أسر سفن أوربية فقضى بقية حياته في روما ، وسمي باسم « جيوفاني ليو » أو « ليو الأفريقي » .

وقد زار الوزاز بلادا اسلامية كثيرة في أفريقيا وغيرها ، ووضع كتابا عن مشاهداته فيها ، كتبه في روما . ومات في تونس سنة ٩٥٩هـ (١٥٥٢م) .

ومنهم أبو محمد العبدري البلنسي الذي خرج في رحلته من المغرب سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) ، فهبط مصر ، ومنها الى الحجاز ، ثم بلاد الشام ، ومنها الى مصر مرة أخرى ، حتى عاد الى وطنه .

ومنهم أبو عمر بن عبد الله بن رشيد الأندلسي ، بدأ رحلته من غرناطة فزار الشمال الأفريقي ، ومصر ، والشام ، ودامت رحلته هـذه نحو سبع سنين .

وهناك رحلات أخرى قام بها رجال من وطن ابن بطوطة ، ووصفوا مشاهدهم فيها ، وقد حفظت الرحلات ، وجهلت أسماء القائمين بها .

ثم قامت بعد ذلك سفارات كثيرة من بلاد الشمال الأفريقي الى استانبول بعد استيلاء الترك على هذه البلاد ، ولكنها كانت ذات صبغة رسمية لا علمية .

(١) كتاب « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » للمستشرق الكبير كراتشكوفسكي ، ترجمة الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم .

ولم تكن الأغراض الأدبية هي وحدها دافع هؤلاء الرحالة الى السفر والرحلة ، فنحن نجد منهم من طوّف بـلادا كثيرة يدرس النبات والأعشاب فيها ، كابن البيطار المالقي ، الذي رحل من مالقة بالأندلس الى مصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، يدرس نباتها وأعشابها التي تستعمل في عقاقير الطب . وكان قبل ذلك قد طاف بلاد المغرب أيضا لهذا الغرض .

وكان من ثمرات رحلاته هذه أن ألف كتابيه : « الجامع في الأدوية المفردة » ، و « المغني في الأدوية المفردة » .

وبذلك يكوّن أدب الرحلات في بلاد المغرب الأندلسية والعربية قسما كبيرا هاما من هـذا الانتاج ، أو كما يقول المستشرق « كراتشكوفسكي » في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » : « وقد أثبت نمط الرحلة بجدارة أنه أكثر الانماط مقاومة ورواجا ، غير أن اهتمام المغاربة بـه كان يتجاوز اهتمام الأندلسيين . وظل هـذا الاتجاه مزدهرا بين ظهرانيهم ، حتى اختتمه ابن بطوطة ، فاختتم بذلك في نفس الوقت سلسلة الرحلات العربية ذات الأهمية العالمية . »

هذا عن الظاهرة ووضوحها . أما عـن السبب ، فأعتقد أنه توجد عـدة أسباب ، أولها سبب عام يشترك فيه أكثر هؤلاء الرحالة ، وربما كلهم ، وهو الرغبة في أداء فريضة الحج . فالحج فريضة مقدسة يحرص القادرون من المسلمين على أدائها في جميع العصور ، ولأداء هذه الفريضة خرج هؤلاء الرحالة من بلاد المغرب الى الشرق يقصدون مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، ويزورون في طريقهم اليهما بلادا أخرى . وهذا ، كما قلنا ، سبب عام يشترك فيه أهل المغرب وغيرهم .

ومن الأسباب الخاصة بأهـل المغرب أن الحضارات الاسلامية التي قامت فـي العصور الوسطى ، وما سبقها ، كان موطنها الشرق ، أي بغداد ، والشام ، ومصر ، وكانت هذه البلاد بحضارتها ذات بريق ومكانة كبيرة في بلاد المغرب الافريقي والأندلسي ، تجعل من زيارتها أمنية عزيزة وغاية مرموقة يسعى اليها الرحالة المغربيون ، ليتعلموا على شيوخها ، ويشهدوا مظاهر حضارتها وثرائها ، التي بهرت عيون من زارها ، وشوّقت لزيارتها من لم يزوروها .

نجد هذا التقدير للشرق عند أهل المغرب ، و « الانبهار » لما سمعوه من أخبار حضارتها في كثير من كتب هؤلاء المغاربة وأحاديثهم ، ومن ذلك ما قاله شعرا ابن حزم الأندلسي ، وجعله سببا لخمول شأنه ، فهو يرى أنه كالشمس ينير في سماء العلوم ، ولكن ذنبه أنه خرج في الغرب ولم يكن من أبناء الشرق ، ولو كان منهم لكان له في العلم والجاه والمنزلة مكان خطير وصيت كبير . ومن عيوب قومه أنهم يتشوّقون للبعيد ويحنّون له ويكبرونه ، وقرب المرء منهم ذنب له عندهم . يقوم ابن حزم :

أنـا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن ذنبي أن مطلعي الغـرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع
لجد على ما ضاع من ذكري النهب
فيا عجبا ، من غاب عنهم تشوّقوا
له ، ودنو المرء من أرضهم ذنب

وسبب آخر ، هو ما عرف عن أبناء المغرب من قوة الجسد ، ومتانة البنية ، وحب المخاطرة ، والصبر على المشقة ، وعدم اللصوق بالأرض ■



حسن الجواب يستوجب العفو

* سار المأمون مع يحيى بن أكثم ، وبينما هما في الطريق اذ خرج عليهما رجل فجأة ، فنفرت منه دابة المأمون ، وألقته على الأرض ، فأمر بضرب عنق ذلك الرجل ، فقال : يا أمير المؤمنين امهلني حتى أكلمك ، وأفعل ما بدا لك . قال : قل وأوجز . فقال : ان الرجل المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ويتجاوز الأدب ، وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتي ، لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رد ما لم تفعل أقدر مني على رد ما قد فعلت ، فعطف عليه المأمون وقال ليحيى : ألا تنظر مخاطبة هذا الرجل ثم عفا عنه واعتذر اليه .

فضل العرب

* لما تم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، جاءته وفود المهنئين ، فكان منها وفد فيه زياد والأحنف ، فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، أشخصت اليك أقواما الرغبة . وأقعد عنك آخرين العذر ، فقد جعل الله في سعة فضلك ما يجبر به المتخلف ، ويكافىء بـه الشاخص . فقال معاوية : « مرحبا بكم يا معشر العرب ، أما والله لئن فرقت بينكم الدعوة ، ولقد جمعكم الرحم ، ان الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم ، ثم حفظ عليكم نسبكم بأن تخير لكم بلادا تجتاز عليها المنازل ، حتى صفاكم من الأمم ، تصفية الفضة البيضاء من خبثها فصونوا أخلاقكم ، ولا تدنسوا أنسابكم وأعراضكم ، فان الحسن منكم أحسن لقربكم منه ، والقبح منكم أقبح لبعدكم عنه » فقال الأحنف : « والله يا أمير المؤمنين ، ما نعدم منكم نائلا جزيلا ، ورأيا أصيلا ، ووعدا جميلا ، وان أخاك زيادا لمتبع آثارك فينا فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فانكم كما قال زهير :

ومـا يـك مـن خير أتوه فانما
توارثـه آبـاء آبائهم قبـل

وهـل ينبت الخطي الا وشيجه
وتغرس الا فـي منابتها النخـل

وصية قيس بن عاصم لبنيه

* لما حضرت قيس بن عاصم الوفاة دعا بنيه فقال : يا بني احفظوا عني ، فلا أحد أنصح لكم مني . اذا مت فسودوا كباركم ، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم ، وعليكـم باستصلاح المـال ، فانه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . واياكم ومسألة الناس ، فانها آخر كسب الرجل .

وصف اللسان

* وصف بعض البلغاء اللسان فقال : اللسان أداة يظهر بها حسن البيان ، وظاهر يخبر عن ضمير ، وشاهد ينبئك عن غائب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الحقائق ، ومعز ينفى به الحزن ، ومؤنس تذهب به الوحشة ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومزين يدعو الى الحسن ، وزارع يحرث المودة ، وحاصد يستأصل الضغينة .

اللغة العربية

للشاعر انور العطار

موجهة الى أبنائي طلاب كلية اللغة العربية في الرياض ، حرسة العربية ، وحفظة الكتاب .

أيا لغتي أنت رمز القدم ... ولولاك كان البيان العدم
ويا لغتي أنت ترب الخلود ... وخدن البقاء وسر العظم
لسان الكتاب وفضل الخطاب ... ولب اللباب وروح الحكم
وريحانة رويت بالعلا ... وزنبقة نديت بالكرم
تميس المعاني بها كالغصون ... اذا حفلت بثمار القلم
وتنساب ألفاظها كاللحون ... فيا رب لفظ جرى كالنغم
توشى بها السحر سحر البيان ... وطاب القريض بها وانتظم
اذا ما استقرت فسجع الحمام ... وشدو الينابيع بين الأجم
واما استثيرت فدك الجبال ... ومحو الرجال وصبّ الحمم

* * *

أصونك ما عشت صون النفيس ... وأعلي مكانك بين الأمم
وأرعاك رعية أهل الوفاء ... وحفظ اللغات لحفظ الحرم
وأدفع عنك أذاة العداة ... وأنجيك من زيغ أهل النقم
فمن حاقد يتقرى العيوب ... ومن كائد يتحرى التهم
فذياك في الطرف منه عمى ... وذلك في السمع منه صمم
وظلك تأوي اليه الحياة ... وما ظلك السمع الا حرم
بك الله وثق حبل الاخاء ... وحبل الأخوة لا ينصرم
ولولا أياديك عم الشقاق ... وحل بنا داؤه المخترم
فقد يجتوى العيش بعد الوئام ... ولا تشتهى الحرب بعد السلم
ولا ينفع الود ود القريب ... اذا الصد قطع منا الرحم

* * *

هي الكلم الطيب المنتقى ... هي النغم الساحر الملتئم
وما همت دهري الا بها ... وما عرف الحب من لم يهم
وهل أنا الا فتاها المشوق ... وهل هي الا هواي العمم
حلال لعيني فيها السهاد ... وبرح السقام ولذع الألم
فما العربية الا الحمى ... وما العربية الا الذمم
بها أنزل الله قرآنه ... بها عصم الله من قد عصم
وكان لبنيانها دعمة ... تجل على راسخات الدعم
وكان لروضتها ديمة ... تزيد على هاميات الديم
وكان لفينانها نعمة ... تنيف على وافيات النعم
به بلغ العرب أوج الكمال ... وبالمصطفى أفردوا بالشمم
اذا حكموا لم يجر حكمهم ... وما عرف الجور شرع حكم
رعوا أمم الأرض لم يأتلوا ... وكانوا قديما رعاة الغنم

* * *

فيا لغتي أنت عطر الخلود ... وناسمه الصرف اما نسم
ويا لغتي أنت لحن الوجود ... ومبتدأ القول والمختتم





بقلم الاستاذ احمد طاشكندي

أخذت الجامعات الحديثة التي نشأت في بعض البلاد العربية ، كالقاهرة وبيروت ودمشق ، تدعو الى منهج جديد في دراسة الأدب ونقده ، قائم على الأفادة من المناهج الغربية .

يقول الدكتور محمد يوسف نجم في أحد بحوثه الأدبية عن الفنون في عصرنا الحاضر :

كانت دروس المدرسين ورسائل طلاب الدراسات العليا واختبارات طلاب البعثات ، الأساس العلمي الركين الذي بنيت عليه الدراسات الأدبية في مصر وسائر البلاد العربية منذ بداية العقد الرابع من القرن العشرين .

وبالاضافة الى الدراسات التطبيقية التي أجراها هؤلاء الدارسون على الأدب العربي ، أصاب النقد بمعناه الواسع حظا كبيرا من العناية . ولقد أفادت العلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، المهتمين بدراسة الأدب ونقده .

ان الدراسات النفسية ثمرة من ثمار الدراسات الجامعية في النقد الحديث . فلقد عني قسم الفلسفة بجامعة القاهرة بتدريس علم النفس ، وصدرت عن أساتذته دراسات قيمة في هذا الموضوع ، أود أن أضع أمام أنظار القراء خلاصة وافية لها في هذا المقال .

ان أول من عني بتطبيق نظريات علم النفس على الأدب ودراسته هو الأستاذ محمد خلف الله ، عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد بدأ بنشر مقالاته النقدية على صفحات مجلة « الثقافة » ومجلة « كلية الآداب » ، ثم جمعها في كتاب أسماه « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده » . ثم طبق منهجه هذا في دراسة بعض الشخصيات والحركات في الأدب العربي في كتابه الموسوم « دراسات في الأدب الاسلامي » .

وقد تناول في كتابه الأول بعض نواحي الدراسة النفسية في الأدبين الأوربي والعربي القديم ، وعرض لمناهج النقاد والدارسين في الأدب الحديث ومدى افادتها من علم النفس واعتمادها عليه . والمؤلف في الواقع لا يلتزم مدرسة بعينها من مدارس علم النفس ، بل يفيد من نتائج دراسات

الباحثين في هذا العلم ، ويحاول تطبيقها في دراسة الأدب . وهو يلمس الافادة من العلوم المختلفة ، كعلم الجمال والاجتماع والتأريخ في دراسة الأدب ونقده .

وصدر عن الأساتذة الجامعيين دراسة نفسية أخرى ، وهي دراسة الاستاذ حامد عبد القادر في كتابه « دراسات في علم النفس الأدبي » . وقد قسمها الى أربعة أبواب تحدث في الأول عن المباحث النفسية ، وفي الثاني عن العمليات العقلية المؤثرة في الانتاج والتقدير الأدبي ، وفي الثالث عن الفنون وسر الجمال فيها ، وفي الرابع قدم منهجا تفصيليا للنقد الأدبي ، قائما عـلى علم النفس .

وهناك دراسة أخرى للأستاذ مصطفى يوسف بعنوان « الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » ، تعتبر فتحا في الدراسات النفسية النظرية .

والى جانب هذه الدراسة ، هناك العديد من المقالات التي كتبها المتخصصون في علم النفس ، ظهرت في المجلات العربية خلال السنوات القليلة الماضية .

ولقد حاول الأستاذ محمد النويهي أن يستغل الدراسات النفسية في دراسة الأدب العربي ، فدعا اليها دعوة مخلصة في كتابه « ثقافة الناقد الأدبي » ، وطبقها على ابن الرومي ، وبشار ابن برد ، وابي نواس ، تطبيقا لا ينتمي الى العلم أو الأدب ، ولكنه منهج خاص في النقد ليس فيه الا التكلف والمشقة الشديدة ، يحيل الدراسة الأدبية الى دراسة في الحواس وأجهزة جسم الانسان المختلفة .

ولقد استأثر النقد الأدبي — بمعناه العام — ونقد الشعر ، بجهود النقاد العرب ، على مرّ السنين . واختلط الاثنان ، حتى لم يعد بالامكان التمييز بينهما . فاذا تحدث الناقد عن الأدب ونقد الأدب ، فهو انما يعني بالأكثر الشعر ونقد الشعر .

وللشعر دولة ورجال — كما يقال — ولهذا أجدني عاجزا عن التحدث باسهاب عن نقد الشعر .. فأنا لست بشاعر ينظم القصيد ، وان كنت أحب قراءة الشعر ، وخاصة ما اصطلح على تسميته بالشعر العمودي ، لا الشعر الحديث أو المنثور .

وهناك العديد من الفنون الأدبية الأخرى ، التي استأثرت على مرّ السنين ، بعناية النقاد والأدباء . وعلى سبيل المثال ، فقد لاقت المسرحية عناية كبيرة من النقاد ، نظرا لارتباطها بالمسرح والتمثيل ، ولأنها كانت في الأدب العربي الحديث فنا أدبيا مزدهرا .

والمعروف أن رائد النقد المسرحي هو محمد تيمور ، الذي تثقف بثقافة مسرحية عميقة ، حين درس الحقوق في فرنسا ، وعالج الكتابة للمسرح ، ولو أن هذا لا يعني أن نغفل دور غيره من نقاد المسرح كنقولا نقاش ، وسليـم البستاني ، وفرح انطون .. فلهؤلاء محاولات عديدة قيمة في نقد المسرحيات .

ولو نظرنا الى الخطابة باعتبارها أحد الفنون الأدبية منذ قديم الزمان ، لوجدنا أنها لاقت الشيء الكثير من النقد الأدبي . فلقد كان لها عند العرب أهمية خاصة ، أما اليوم فتكاد تصبح كالمقالة الذاتية .. مصيرها الى زوال .

أما موضوع القصة ، فقد نال من عناية النقاد الشيء الكثير . ومع أن الكتب التي ألفت فيه ما تزال قليلة ومحدودة ، الا أن المقالات التي كتبت عنه في بعض البلاد العربية عديدة لا حصر لها .

ولقد اهتمت بعض المجلات العربية كمجلة « السياسة » الأسبوعية ، في مصر ، بموضوع القصة ، فنشرت الأقاصيص والدراسات النقدية والتأريخية عن القصة . كما أن مجلة « المكشوف » ، في لبـنـان قد أخذت على عاتقها مهمة الترويج لفن القصة ، باعتباره اللون الأدبي الأكثر شيوعا في هذا العصر ، وباعتبار أن الأدب العربي مفتقر اليه كل الافتقار .

وهناك لون آخر من ألوان الأدب كاد أن يندثر في هذه السنين وأعني به فن السيرة . فعلى الرغم من أن الأستاذ الراحل عباس محمود العقاد قد ألف عدة كتب اشتهرت بالعبقريات ، فان معظم النقاد نظروا اليها على اعتبار أنها كتب تأريخية ، وانتقدوها على هذا الأساس لا على انها كتب سيرة . هذا في الوقت الذي كان كبار الكتاب والنقاد في بلاد الغرب ، أمثال « ستراتش » و « لودفيج » و« موروا » ، قد اهتموا بفن السيرة كل الاهتمام وأولوه كبير عنايتهم ، ولهم في هذا المضمار العديد من الكتب والمؤلفات القيمة .

ولعل هذا ما دفع ببعض الأدباء في البلاد العربية ، الى أن يضعوا دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي . وأول من عني بالأدب المقارن في الأدب العربي الحديث هو المرحوم فخري أبو السعود في مقالاته التي نشرت في مجلة « الرسالة » ، وقارن فيها بين الأدبين الانجليزي والعربي .

والواقع أن هذه المقالات تناولت هذين الأدبين من حيث وجوه الشبه والاختلاف ، دون النظر بعين الاعتبار الى نظريات الأدب المقارن التي تعنى بدراسة الأدب القومي في علاقاته التأريخية بغيره من الآداب خارج حدود اللغة القومية التي كتب بها .

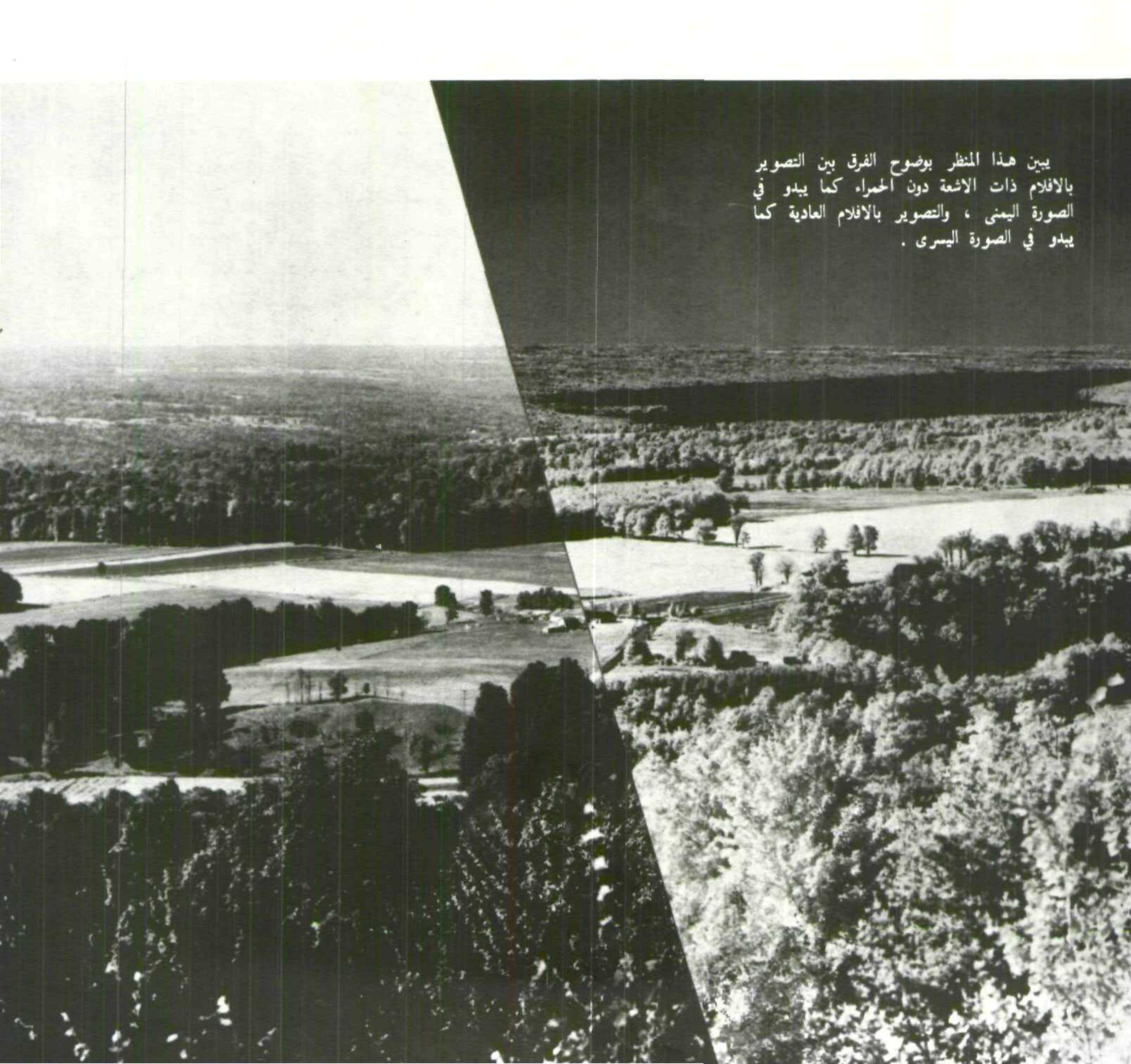
ومن أوائل من عني بالتأليف عن الأدب المقارن هو الأستاذ عبد الرزاق حميدة الذي أصدر كتابه « في الأدب المقارن » عام ١٩٤٩ ، وجاء بعده الأستاذ ابراهيم سلامة فألف كتابه « تيارات أدبية بين الشرق والغرب — خطة ودراسة في الأدب المقارن » ، تحدث فيه عن مكانة الأدب المقارن وعن العناصر المكونة له والاعتبارات المعوقة لتقدمه ، كما تحدث عن قواعده وقوانينه .

وكخاتمة لهذا البحث عن دور الجامعات في دراسة الأدب العربي ، أحب أن أذكر هنا ما جاء على لسان أحد الأدباء من أن الشعر استأثر بمعظم جهود النقاد في البلاد العربية ، بينما كان حظ الفنون الأدبية الأخرى ، ضئيلا بشكل ملحوظ .

ومن المتوقع أن يولي الأدباء والنقاد تلك الفنون والدراسات الادبية اهتماما أكثر في المستقبل لاسيما بعد أن ازداد عدد الجامعات ، وكليات الآداب بوجه خاص ، في البلاد العربية ، مما يبشر بالخير على أيدي خريجي الجامعات ■

الأشعة دون الحمراء
والأشعة فوق البنفسجية

بقلم الدكتور نقولا شاهين



يبين هذا المنظر بوضوح الفرق بين التصوير بالافلام ذات الاشعة دون الحمراء كما يبدو في الصورة اليمنى ، والتصوير بالافلام العادية كما يبدو في الصورة اليسرى .

لم يكتف الانسان بمشاهدة نور الشمس ، وما يحدث بسبب ذلك من تطورات في شتى نواحي حياته ، بل راح يبحث في خواص الضوء ليفسر ما يجري حوله بصورة علمية ، كانعكاس الضوء عندما يقع على سطح مصقول ، وانكساره عندما ينتقل من الهواء الى الماء أو الزجاج ، الى ما هنالك من أمور مختلفة ترافق ظاهرة الضوء .

وقد مرّت آلاف السنين ، قبل أن يدرك العقل البشري ، ان الضوء يسير بسرعة محدودة ، ويستغرق زمنا معينا لينتقل من مركز الى آخر ، لأن المقاييس في هذا الحقل كانت تفوق مقدرة الوسائل التي كانت في حوزة الانسان اذ ذاك . وهنا يبرز خيال الانسان كأداة فعالة في وضع نظرية تقول : « ان الضوء ينتقل من مكان الى آخر بسرعة ثابتة » . والذي لا ريب فيه أن « الحسن بن الهيثم » هو أول من قال بانتقال الضوء ، وأن للضوء وجودا في ذاته ، وان الجسم المشف يسمح بانتقال الضوء عبره ، وأن انتقاله لا يتم بدفعة واحدة ، بل يستغرق زمنا محددا وسرعة ثابتة . كما حاول « ابن الهيثم » أن يشرح قضية انعكاس الضوء عن سطح مصقول على اعتبار أن الضوء مؤلف من وحدات منفصلة أو دقائق ، ترتد عن السطح المصقول ، كما ترتد الأجسام الصلبة عندما تقع على سطح ما .

وفي عام ١٦٧٦ أقبل العالم الفلكي الدانمركي « رويمر » على دراسة هذه النظرية عمليا بمقاييس دقيقة ، وذلك بمراقبة حركة أقمار اصطناعية أربعة تدور حول الكوكب السيار « المشتري » . اذ انها بدورانها حول هذا السيار تغيب عن النظر لفترات ، ثم تظهر للعيان . لكن مدة غياب القمر الواحد لم تكن ثابتة . وقد توصل « رويمر » بثاقب فكره وعمق دراسته ، الى أن الاختلاف في مدى غياب الأقمار ، له علاقة بحركة الأرض بالنسبة الى حركة المشتري ، اذ أن المشتري يكون حينا مقتربا من الأرض وحينا مبتعدا عنها . فأخذ « رويمر » هذه الظاهرة وسيلة لدراسته ، فتوصل بعد ذلك الى أن سرعة الضوء هي ١٩٢٠٠٠ ميل في الثانية ، متخذا قطر فلك الأرض حول الشمس ١٨٦٠٠٠٠٠٠ ميل ، ثم جرى تعديل لهذا الرقم على ضوء التجارب الحديثة ، فأصبح الرقم المقبول ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . فعلى هذا القياس ، يستغرق وصول ضوء الشمس الينا نحو ثماني دقائق ، وهكذا نرى أن ما تخيله « ابن الهيثم » من حيث انتقال الضوء بسرعة محدودة ، أصبح حقيقة علمية تخضع لما يجري من اختبارات ودراسات ، في حقلي علم الفيزياء وعلم الفلك وغيرها .

لكن طبيعة الضوء وماهيته بقيتا موضوع خلاف زمنا طويلا ، فجاء « نيوتن » عام ١٦٦٦ بنظريته القائلة ، « ان الضوء يتألف من ذرات أو دقائق تنطلق من جسم منير ، فتسير بالسرعة نفسها التي عيّنها « رويمر » . ومن هنا نستنتج أن « نيوتن » قد اتفق في نظريته هذه مع « ابن الهيثم » من حيث طبيعة الضوء ، ولكنه جرب أن يبرهن قانون انكسار الضوء عند انتقاله من وسط الى آخر ، فتوصل الى أن سرعة الضوء في الماء هي أكبر منها في الهواء . وقد سلّم الناس بنظرية « نيوتن » هذه نظرا لما كانت تتمتع به من تقدير في الأوساط العلمية ، متخذينها وسيلة في دراسة الظاهرات الضوئية التي كانت معروفة في ذلك العصر ، لا سيما المسار المستقيم الذي تتخذه أشعة الضوء عندما تدخل من ثقب ما ، أو عندما تنكسر عن سطح مصقول ، أو عند انتقالها من وسط الى آخر ، أو عند حدوث ظل لجسم يعترض تلك الأشعة .

في تلك الحقبة من الزمن ، كان العالم الهولندي «هوجنس » يعتبر الضوء والاشعاع حركة تموجية ، أي حركة طاقة لا حركة ذرات مادية . وقد أثبت في تجربة له مشهورة ، أن أشعة الضوء تنحرف عن مسارها المستقيم اذا اعترضها حاجز ماء ، وتظهر علائم هذه الأشعة في الظل الذي يحدث بسبب الحاجز المائي . وعلاوة على هذا فقد تبين من النظرية « التموجية » هذه أن سرعة الضوء في وسط كالماء أو الزجاج هي أقل منها في الهواء ، خلافا لنظرية « نيوتن » . وجاءت تجارب العالم الافرنسي « فوكو » عام ١٨٦٣ لتثبت عمليا صحة نظرية « هوجنس » التموجية . كما ساعدت على فهم الكثير من الظاهرات الضوئية وتفسير معالمها ، كتداخل الضوء وتفريقه . وبقيت هذه النظرية التموجية سائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر . وبموجبها يستدعي انتقال تموجات الضوء توفر وسط يشبه الهواء . بيد أن المعروف أنه ليس هناك من وسط مادي في رحاب الكون ، حيث تنبعث الأشعة وتخترق المسافات الشاسعة ، كما أن الضوء ينتقل في الفراغ بخلاف الصوت . هذه الأمور جميعها جعلت « هوجنس » يلجأ الى فرض وجود الأثير ، الذي اعتبره مادة تملأ الفراغ بين الأجرام السماوية بل وكل فراغ ، وفي الوقت نفسه يكون وسطا لانتقال تموجات الضوء . فالأثير ، على حد افتراضه ، وسط شفاف للغاية لاوزن له ، فوجوده يخالف خصائص المادة كما هي معروفة لدينا . وقد وافق عدد من العلماء « هوجنس » على ذلك .

وقد ظلت النظرية التموجية سائدة بين العلماء ، يعملون بمبادئها وأسسها في دراسة عالم الاشعاع وفهم طبيعته . غير أن تقدم وسائل الاختبار العلمي ، والتعمق في فهم خواص الطاقة ، ومن ضمنها الضوء ، كشف النقاب عن حقائق أثبتتها التجارب وجاءت مناقضة للنظرية التموجية . ومن ذلك ما أعلنه العالم الالماني « ماكس بلانك » في سنة ١٩٠٠ عن قواعد نظرية « المقدار أو الكم » ، والتي خلاصتها أن الضوء ينطلق بشكل وحدات منفصلة من المقادير ، تمتصها الأجسام ، أو تعكسها ، أو تفرقها . وهذا يذكرنا بجانب من نظرية « نيوتن » من حيث طبيعة الضوء الذرية ، تلك النظرية التي بشر بها «الحسن ابن الهيثم » قبل « نيوتن » بسبعمائة سنة تقريبا . على أن نظرية « المقدار » هذه ، لم تتمكن من تفسير ما كان يعترض العلماء من غموض في دراسة الطاقة كما هي الحال في ظاهرة « التداخل » ، حيث يعتمد الباحثون على النظرية التموجية . وهناك ظاهرة في دراسة الضوء تعرف بـ « الفعل الكهرضوئي » لم تتمكن النظرية التموجية من تعليلها ، بينما أوجدت نظرية « المقدار » تفسيرا لها . وقد تبين من دراسة الكهارب ، أن دقائق المادة لها خواص الأمواج من حيث التداخل وغيره ، مما حدا بالعلماء الى التوصل الى نظرية جديدة هي « الميكانيكا الموجبة » ، وقد تفرع عن هذه النظرية آراء غاية في الأهمية ، ما زالت قيد البحث والدرس في حقل الفيزياء النظرية .

والأمر المسلّم به اليوم بالنسبة لدراسة تموجات الضوء هو انها مجرد اضطرابات كهربائية مغنطيسية شبيهة بالاضطرابات الناشئة عن شرارة كهربائية ، وكذلك الأمواج الحرارية ، التي تسير بسرعة الضوء . وهكذا أصبح مدى الأشعاع في منتصف القرن التاسع عشر ، يشتمل على الضوء المرئي ، الذي يتكون من الأشعة الحرارية ، أي التي دون الحمراء والأشعة الكهرطيسية ، والأشعة الكيميائية أي التي فوق البنفسجية. وقد امتد مدى طيف الاشعاع حتى أصبح يشتمل على الأشعة الراديوية ، والأشعة السينية ، وأشعة « جاما » ، والأشعة الكونية . أما الوحدة المعمول بها في

صورتان جويتان لمنظر واحد ، التقطت الصورة العليا بفيلم ذي أشعة دون الحمراء ويبدو فيها الماء والطرق وسقوف المنازل سوداء داكنة ، بينما التقطت الصورة السفلى بفيلم حساس عـادي .

قياس أطوال الأمواج فهي « الانغستروم » وهي جزء من مائة مليون من السنتمتر . وهذه بعض أطوال الأمواج في طيف الاشعاع .

فالأمواج اللاسلكية تتراوح أطوالها من بضعة آلاف الأمتار الى $\frac{١}{١٠}$ السنتمتر .

والأشعة دون الحمراء تتراوح اطوالها من $\frac{١}{١٠}$ السنتمتر الى $\frac{٨}{١٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر .

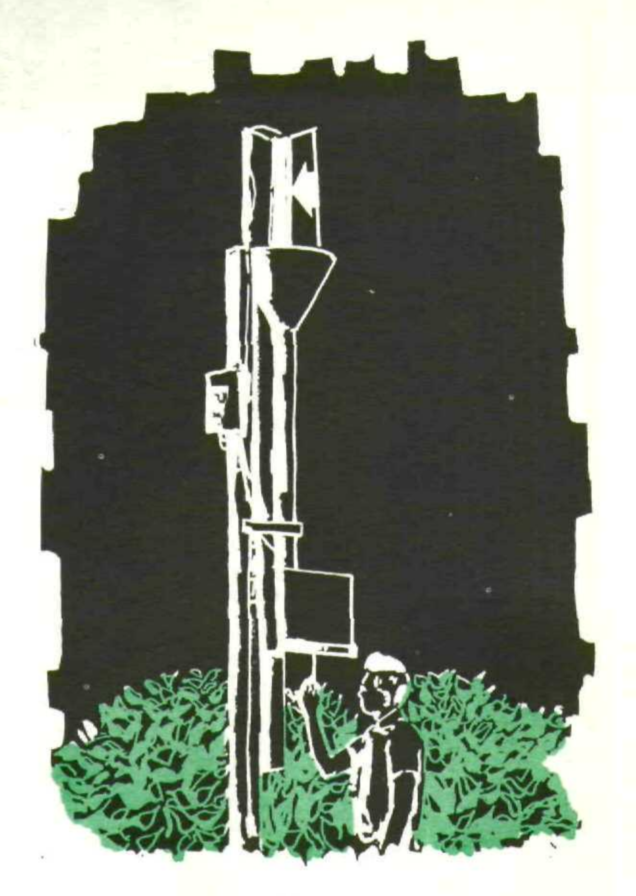
وأشعة الطيف المرئي تتراوح أطوالها مــن $\frac{٨}{١٠٠٠٠٠}$ مــن السنتمتر الى $\frac{٤}{١٠٠٠٠٠}$ السنتمتر .

والأشعة فوق البنفسجية تتراوح أطوالهـا مــن $\frac{٤}{١٠٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر الى $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر .

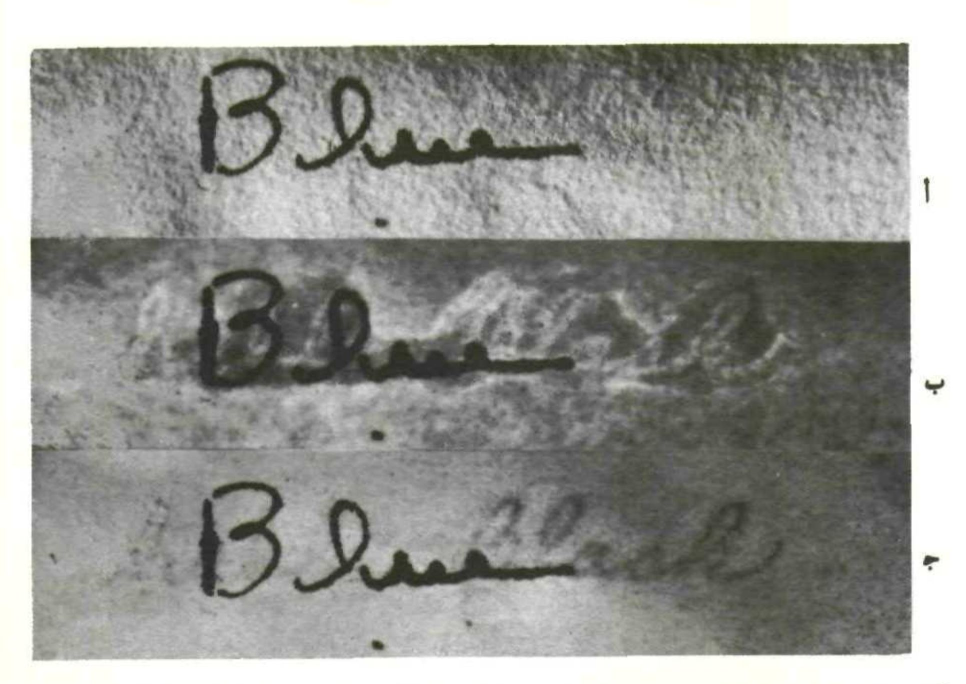
والأشعــة السينية تـــتراوح اطوالهـــا مــن $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر الى $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر .

هُنالك عوامل كثيرة ساعدت ، ولا شك ، على تطور الانسان في مختلف نواحي حياته . ولعل من أهم تلك العوامل الاشعاع بأنواعه المرئية كنور الشمس وغيرها من المصادر الضوئية ، وغــير المرئية كالأشعة الكونية . ولقد ظل الانسان في حيرة تجاه نور الشمس ومن كم لون يتكون ، حتى جاء « نيوتن » في القرن السابع عشر وأجرى تجربته المشهورة ، عندما أدخل أشعة الشمس من ثقب ضيق ، وسلّطها عــلى موشور زجاجي ، فوجد أن الأشعة تنفذ من الناحية المقابلة من الموشور ، وتنحل الى ألوان سبعة ، كما يجري في الأيام الممطرة عند انحلال نور الشمس بواسطة قطرات الماء في الجو ، وبالتالي تولد قوس قزح . أما هذه الألوان السبعة فهي الأحمر ، والبرتقالي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلي ، والبنفسجي ، وجميعها تسير بسرعة الضوء ، لكنها تختلف عن بعضها البعض بأطوال أمواجها . والمعروف أن اللون الأحمر أطولها والبنفسجي أقصرها . أما أمواج الألوان الأخرى فتتدرج في القصر من الأحمر الى البنفسجي . أما بالنسبة للضوء الأبيض فيتكون من ألــوان عديدة لا تحصى .

ولا ينتهي مدى الاشعاع هذا عند البنفسجي من ناحية ، وعند الأحمر من ناحية أخرى ، بل يمتد دون الأحمر وفوق البنفسجي . فالأشعة دون الحمراء أشعة حرارية طويلة الأمواج لا تتأثر بها عين الانسان . وقد تبين من تأثير الأمواج التي يتألف منها طيف الشمس المرئي في المقياس الحراري ، ان أشعة اللون الأحمر أشد فاعلية من أشعة



رسم لاحدى المصايد الخاصة بالحشرات التي تطير أثناء الليل ، وقد زودت بمصباح ذي ضوء أسود يجذب الحشرات اليه فتصطدم به وتسقط في القمع . وتستعمل هذه المصائد في الحقول .



كلمة «ازرق» مكتوبة بالحبر صورت على ثلاث مراحل مختلفة ، حيث يبدو الفرق بينها واضحا :
أ – العليا التقطت بالنور العادي ، فلم يظهر عليها زيف .
ب – والثانية بالأشعة فوق البنفسجية ، فظهر خلفها كتابة غير واضحة .
ج – والثالثة بضوء الأشعة فوق البنفسجية المنعكس ، اظهرت الكتابة الاصلية وهي كلمة «اسود» .

اللون البنفسجي في رفع درجة الحرارة . وان المسبب لذلك هي الأشعة دون الحمراء غير المرئية التي لها تأثير حراري والتي تخضع لقوانين الانكسار والانعكاس والاستقطاب والتداخل ، تماما كما هي الحال بالنسبة لأمواج الطيف المرئي . كما تبين أيضا أن الأمواج دون الحمراء أشد نفاذا في جسم الانسان من الضوء العادي ، لذلك فقد استخدمت في تشخيص الأمراض لتصوير بعض أجزاء الجسم الواقعة تحت الجلد مباشرة . كما استعملت للتصوير في حالة وجود الضباب . والأشعة دون الحمراء هي المصدر المسؤول عن الجزء الأكبر من الحرارة المنبعثة عن الشمس ، والتي تتوقف عليها حياة الكائنات على سطح الأرض.

لقد تمكن العلماء من تطوير استخدام الأشعة دون الحمراء في مجالات عديدة ، فأمكن بواسطتها التصوير ليلا في الظلام اعتمادا على الحرارة المنبعثة من الأجسام ، مهما ضئلت . كما أمكن بواسطتها الكشف عن أجرام سماوية ، يتعذر تصويرها بواسطة المراقب الضوئية العادية ، لأنها بلغت من البرودة حدا لا يسمح لها بارسال أشعة مرئية . بيد أن الأجهزة الحرارية تستطيع قياس المقدار الضئيل من الحرارة الذي يصل الى الأرض من تلك الأجرام . والمعروف ان النجوم المزدوجة ذات أنواع مختلفة ، فمنها ما يتألف من نجمين يظهران للعين المجردة كنجم واحد ، لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر الا بواسطة المرقب . ومنها ما لا يستطيع المرقب التمييز بينهما ، لأن أحد النجمين يكون مظلما . والقسم الأكبر من النجوم المتغيرة هو من النوع الأخير ، ولم يكن بالامكان معرفة ذلك قبل دخول المطياف « السيكترسكوب » الى المراصد الفلكية ، الذي يمكن بواسطته الكشف عن أجسام تبعث أشعة حرارية غير منظورة .

أما الأشعة فوق البنفسجية فهي التي تؤثر في نترات الفضة على ألواح التصوير والأفلام عند تعرضها للنور في التصوير الضوئي ، ويتعذر على العين البشرية رؤيتها ، لأن أقصر الأمواج التي تدركها العين هي أمواج الضوء البنفسجي . من هنا فقد كان ضروريا أن تصنع أجهزة غير العين البشرية لدرس هذا النوع من الأشعة ، فظهرت بذلك الأفلام الفوتوغرافية والعين الكهربائية التي تستعمل في التلفاز ، لتحويل الأشعة الضوئية الى تيارات كهربائية ، وكذلك في قياس شدة هذه الأشعة .

تعتبر الشمس أهم مصادر الأشعة فوق البنفسجية ، لكن قسما كبيرا منها تمتصه الغازات في جو الشمس وفي الغلاف الهوائي الذي يحيط بالأرض ، فتتضاءل فعاليتها . لذلك اتجهت الأفكار الى توليد هذه الأشعة من مصادر أخرى كالمصباح الزئبقي . وقد لعبت الأشعة فوق البنفسجية دورا مهما في عالم الطب نظرا لفوائدها العديدة ، فهي تستعمل كمقو بشكل فيتامين « د » ، وكمطهر يساعد على شفاء الجراح بسرعة . وقد أثبتت فعاليتها في معالجة حالات التدرن ، والكساح ، والروماتزم ، وبعض الأمراض الجلدية . غير أن التعرض الطويل لهذه الأشعة يسبب احتراقاً في الأنسجة لاسيما الحساسة منها كأنسجة العين .

كشفت الأشعة فوق البنفسجية أثناء التحقيق عن تزوير في رخصة السيارة هذه التي تبدو في الصورة اليمنى .

TENN. CERTIFICATE OF AUTOMOBI' REGISTRATION 1949
STATE OF TENNESSEE
EXPIRES APRIL 1, 1950

2 | C — Co. No. Class — License Number — State Fee ..... $ 7.50 — Clerk's Fee .... .50

Buick 48725805 — Make of Car, Motor Number — Total.. $ 8.00

✓ Weight — 1947 Yr. Made — 2dr Type Body — ✓ Old — New

EVIDENCE OF TITLE

Previous Registration — State — 1948 License No.

Bill of Sale X (Check with X)

Owner's Name Kathrine Cunningham

Street Address 2101 Parkway

City MEMPHIS County SHELBY

Kathrine D. Cunningham — Signature of Owner or Agent

This is to certify that the vehicle above described is duly registered with the Department of Finance and Taxation, State of Tennessee, subject to the provisions of Chapter 55, Public Acts of 1935, as amended.

Date 2/8/49, 194 — Jim Clarence Evans — Commissioner of Finance and Taxation

John W. McGoldrich — County Court Clerk — County SHELBY

This certificate is owner's evidence of title and must be kept with the vehicle.

TENN. CERTIFICATE OF AUTOMOBI' REGISTRATION 1949
STATE OF TENNESSEE
EXPIRES APRIL 1, 1950

2 | C — Co. No. Class — License Number — State Fee ..... $ 7.50 — Clerk's Fee .... .50

Buick 48725805 — Make of Car, Motor Number — Total.. $ 8.00

Weight — 1947 Yr. Made — 2dr Type Body — ✓ Old — New

EVIDENCE OF TITLE

Previous Registration — State — 1948 License No.

Bill of Sale X (Check with X)

Owner's Name Kathrine Cunningham

Street Address 2101 Parkway

City MEMPHIS County SHELBY

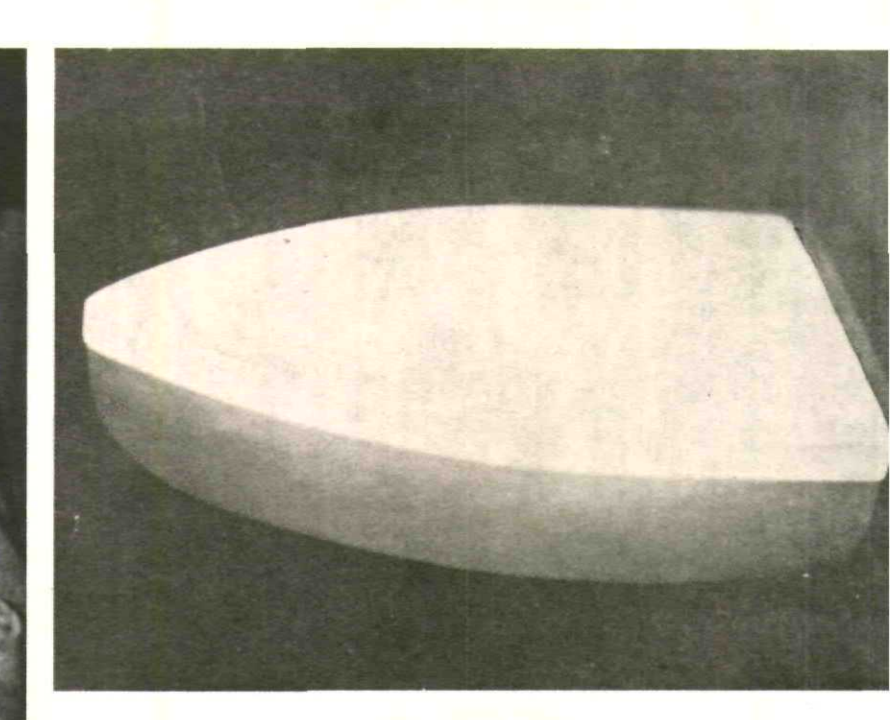
Kathrine D. Cunningham — Signature of Owner or Agent

This is to certify that the vehicle above described is duly registered with the Department of Finance and Taxation, State of Tennessee, subject to the provisions of Chapter 55, Public Acts of 1935, as amended.

Date 2/8/49, 194 — Jim Clarence Evans — Commissioner of Finance and Taxation

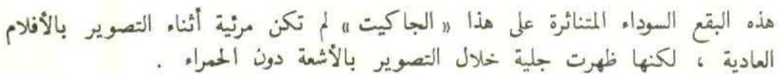
John W. McGoldrich — County Court Clerk — County SHELBY

This certificate is owner's evidence of title and must be kept with the vehicle.





صورة لمكواة أخذت في حجرة مظلمة تماما لأنها تطلق أشعة دون الحمراء غير مرئية .



هذه البقع السوداء المتناثرة على هذا « الجاكيت » لم تكن مرئية أثناء التصوير بالأفلام العادية ، لكنها ظهرت جلية خلال التصوير بالأشعة دون الحمراء .

وقد استعملت هذه الأشعة أيضا في تطهير الهواء من أنواع الميكروبات المختلفة وحاملات الجراثيم ، وخصوصا في المدارس والمستشفيات ودور الحضانة ، وذلك بواسطة مصباح خاص معد لهذه الغاية ، فجاء هذا عاملا فعالا في الحد من مدى انتشار بعض الأمراض كالحصبة في بعض البلدان .

ومن المعروف أن تعرض الأجسام لأشعة الشمس يعطي البشرة لونا أسمرا ، فهذه الأشعة تنبه الجلد وتلونه ، لكن التعرض الزائد لها يسبب احتراقا في البشرة يعرف بالاحتراق الشمسي ، وكثيرا ما يكون على درجة من الخطورة بحيث يحدث بثورا في الجلد يرافقه ارتفاع في درجة حرارة الجسم . وقد يتولد هذا الاحتراق الشمسي في يوم غائم بسبب الأشعة فوق البنفسجية عبر طبقات الغيوم ، كما ان انعكاس أشعة الشمس على سطح الماء أو الثلج أو الرمال قد يسبب هذا النوع من الاحتراق . أما بالنسبة لنور الشمس الذي ينفذ من خلال زجاج النوافذ فانه يفقد القسم الأكبر من هذه الأشعة . والجدير بالذكر أن الأشعة فوق البنفسجية ذات الأمواج القصيرة تولد غاز الأوزون « Ozone » في الهواء ، وهذا يمتص بقوة بعض الأشعة الباقية . وبذلك تتلف بعضها وتجنب المخلوقات الكثير من الأخطار أو الأضرار التي قد تنجم عن التعرض الزائد لها .

ومن منافع هذه الأشعة بالنسبة للانسان انها تكسبه القوة والنشاط ، وبالنسبة للنبات أن يتم بواسطتها التمثيل الكلوروفيلي الضروري له ، كما انها تقضي على الكثير من الجراثيم والطفيليات .

ولهذه الأشعة فوائد أخرى يجدر بنا أن نشير الى بعضها . لقد تبين في استعمال المجهر ، أن تكبير الأشياء يتوقف على قصر أمواج النور . ولما كانت هذه الأمواج أقصر بكثير من أمواج النور العادي ، فقد أصبح بامكانها تكبير الأجسام المجهرية الميكروسكوبية الى نحو أربعة آلاف ضعف ، وهذا يقتضي استعمال عدسات مصنوعة من « الكوارتز » بدلا من العدسات الزجاجية ، تنطبع عليها صور الأجسام لتدرس فيما بعد . بيد أنه يمكن أيضا زيادة التكبير بواسطة المجهر العادي ذي العدسات الزجاجية ، اذا ما سلطنا بعض هذه الأشعة على الأجسام المعدة للفحص ، لأن أجزاء الجسم تتوهج بضوء منظور عندما تتعرض لهذه الأشعة . فالعضلات تعطي ضوءا أخضرا ، والعظام تعطي ضوءا أزرق ، والشعر الخفيف السواد يعطي ضوءا أصفر ، وهلم جرا . وهي احدى الطرق لدراسة تفاصيل الجراثيم وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة .

وقد تمكن بعض العلماء من توليد أشعة فوق البنفسجية تسلط على الأجسام ولا تتمكن العين من رؤيتها . وقد استعملت هذه الأشعة لارسال اشارات غير منظورة . أما طريقة ذلك فهي أن ترسل اشارات بواسطة الأشعة فوق البنفسجية حسب قانون « مورس » التلغرافي ، ولا يدرك هذه الاشارات الا مراقب يحمل منظارا مجهزا بقطعة صغيرة من الزجاج الأورانيومي ، فيشاهد ضوءا يظهر لحظة بعد أخرى ■

لقاء مع

الأستاذ عثمان حافظ



لم يكن قد مضى غير أيام قلائل على عودته من لبـــنان بعد اجازة قصيرة قضاها في ربوعه حين قابلته في مكتبه بصحيفة « المدينة » التي يرأس تحريرها ، وبعد التهنئة بسلامة الوصول كان من الطبيعي أن يكون حديثنا عن الرحلة والاجازة وجبل لبـــنان ومناظره الجميلة التي طالما استهوت قلوب أدباء وشعراء ، فتحدثوا عنه ، ونظموا القصيد في مغانيه ، فقلت :

— ما مدى ما استمتعت به في هذا الجبل الأشم ، وما هي انطباعاتك عنه ؟

◦ كنت معجبا بهذا الجبل منذ اللحظة الأولى التي زرت فيها لبـــنان ، ويرجع ذلك الى عام ١٣٧٨ هـ أو عام ١٣٧٩ هـ ، وأول ما لفت نظري هناك اخضرار الجبال والأودية على السواء . وفي أيام الصيف تزداد الجبال روعة وجمالا حيث تتفتح الأزهار ذات الروائح العطرية والألوان الزاهية المختلفة التي تنعش النفس ، وتشرح الصدر ، كما لاحظت أن الأشجار تتحدى الصخور في رؤوس الجبال وصدورها فتنبت من بين الشقوق وتنمو ويشتد ساقها حتى تناطح السحب ، فترى الجبل الأشم ، وكأنه غابة من الصنوبر ، لكثرة ما به من أشجار باسقة ، ومن مراعي منبسطة .

أما الماء فانه يخرج من منابعه صافيا سائغا ، ويندفع من بعضها بقوة ، فلا تستطيع أن تسمع صوت محدثك القريب منك من دوي خريره ، كما هو في نبع الصفا مثلا ، وينساب في بعض الأماكن انسيابا فضيا رائعا ، ليس أجمل منه الا ما يحيط بجوانبه من أزهار متفتحة ، فواحة الأريج ، وجو منعش ، يملأ النفس نشاطا ومرحا ، مثل نبع الباروك و « انطلياس » وغيرهما .

ولا يتسع المجال في هذه العجالة للتحدث عن مصايف جبال لبـــنان وأوديتها ومغانيها ، فان ذلك يطول ، ولكنني سأتحدث ولو باقتضاب عن أحد هذه المصايف التي كان لها بعض الذكريات لدي ، والتي أجد فيها من الفتنة والخيال ما يأخذ باللب ويستهوي القلـــب . سأتحدث عن « وادي زحلة » هذا الوادي الذي تغنى به الشعراء ، وفتن به الأدباء ، وشدا بروعته وجماله الفنانون .

ويكاد يكون هذا الوادي من أجمل ما رأيت في لبـــنان ، ويزدحم أيام الآحاد في الصيف حتى لتصطك المناكب بالمناكب ، لضيق مسالكه وكثرة مرتاديه ، وقـــد لا تجد مقعدا فـــي (الكازينوهات) على كثرتها في هذا الوادي الجميل. أشجار باسقة ، وزهور متفتحة ، ومياه جارية هنا وهناك تتساقط من صدور الجبال وأعاليها ، يشجيك خريرها ، ويبهرك منظرها ، والكازينوهات على حافتي نهرها الجاري ، ونافوراتها الصاعدة .

وقد اعتدت أن أزور هذا الوادي — في أيام الآحاد — لأستمتع بما فيه من طبيعة سخية ومن ازدحام المصطافين ، ولا أظن أن مصطافا يزور جبل لبـــنان ، ولا يـزور زحلة . وقد استوقفني هذه المرة ، وأنا بين مناظره الفاتنة صوت منبعث مـــن احـــد مكبرات الصوت ، في بعض مقاهيه ، ويخيل اليك ان هذا الصوت يخرج من جذوع الأشجار ومن بين الأغصان حيث تندس مكبرات الصوت . لقد كان صوت محمد عبد الوهاب ينشد قصيدة شوقي المشهورة والتي مطلعها :

يا جارة الوادي طربـــت وعادني
ما يشبه الأحلام مـــن ذكـــراك

هذه القصيدة التي نظمها شوقي في هذا الوادي على حافة نهرها الجاري ، أوحاها اليه جماله الرائع ، وفتنته الأخاذة ، ومناظره الخلابة . ودخلت مع عبد الوهاب في دوامة لا أول لها ولا آخر انستني كل شيء ، حتى واقعي الذي أعيش فيه ، وشغلتني عما حولي من مناظـــر وروائع ، وأعادت لي ذكريات عشتها حقبا من الزمن ، ذكريات الصبا والجمال ، وولجت نحو « الكازينو » الذي نظم فيه شوقي هذه القطعة الرائعة ، التي استلهمت عبقرية عبد الوهاب في تلحينها وإنشادها ، وشاهدت مظاهر الجمال والفتنة التي أوحت لشوقي هذه المعاني الجزلة ، واستنطقت عبدالوهاب بهذا اللحن الذي رفع من قيمة فنه الى الذروة التي كانت طليعة شهرته ، وعلو مكانته في الفن والتلحين .

وما زلت في نشوتي سارحا حتى أيقظني ابني عبد القادر ، وهو يهزني من يدي ويقول : « يقولون لك اشتري لنا من حلاوة زحلة » .

وتشعب بنا الحديث بعد ذلك ، واتجه في مناحي مختلفة حتى حانت مناسبة اسأله فيها عن ذكرياته عن زيارة الدكتورين طه حسين ومحمد حسين هيكل للمدينة المنورة ، فأجاب قائلا :

◦ ليس هناك تقارب بين زيارة الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل للمدينة المنورة . فالأول زارها منتدبا من الجامعة العربية ، لتنسيق الأسس التعليمية والتربوية في البـــلاد العربية ، وتوحيد مناهج التعليم والمصطلحات العلمية فيها . وقد تحدثت عن هذه الزيارة في عـــدد المدينة رقـــم ٩٥٩ الصادر بتاريـــخ ١٣٨٧/٢/١٠ ، وأرى الاكتفاء بما نشر عن هذا الموضوع ولا داعي لتكراره .

أما الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد زار المدينة المنورة بعد اداء نسك الحج والعمرة ، وكان ضيفا على الحكومة في حجه وزيارته ، أكرمت وفادته وسهلت له زيارة المآثر النبوية في المدينة المنورة ومكة المكرمة وغيرهما .

وقـــد انتدبت الحكومة كلا مـــن الأستاذ عبد الحميد الحديدي ، والأستاذ سيد ابراهيم

النوري — رحمه الله — لمرافقة الدكتور هيكل في زيارته للمدينة المنورة، وأقيمت للضيف الراحل عدة حفلات تكريمية، أقام خلالها أدباء المدينة المنورة حفلا عاما تبارى فيه الخطباء والشعراء للترحيب بالدكتور الأديب، وترأس الحفل سعادة الأمير عبد العزيز بن ابراهيم أمير المدينة المنورة آنذاك.

واذكر ان الدكتور هيكل ألقى خطابا ضافيا استمر حوالي نصف الساعة، شكر المحتفلين به على حفاوتهم، وعقب فيه على كل فقرة مما تحدث عنه الخطباء، وكان خطابه محل اعجاب الجميع وموضع تقديرهم.

وكان من خطباء ذلك الحفل الأساتذة، محمد حسين زيدان، وضياء الدين رجب، وعلي حافظ الذي ألقى قصيدة نذكر منها الأبيات التالية:

قدمت فشيدت للنبوغ معالم
وهذا النهى والعلم والنبل قادم
فأهلا بسحبان الكلام وقسه
ورب يراع بأسه لا يرحم
فنحن به اذ نحتفي نأت واجبا
ومن ذا بتكريم له لا يساهم
ومن يجعل الذكر الحكيم نظامه
ويغزو له بالعلم رمح وصارم
تسنم للمجد الأثيل شواهقا
وتنمو به في راحتيه العظائم

وكان الدكتور هيكل يحمل خطاب توصية من جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز الى أمير المدينة المنورة، بالعناية به وتسهيل أمر زيارته لخيبر وبدر، وقد أقنعه الأمير عبد العزيز بن ابراهيم بالعدول عن زيارة خيبر لوعورة الطريق، وعدم سلوك السيارات اليها وقتئذ، واضطراره الى ركوب الابل أو الدواب في بعض المناطق الجبلية، فعدل عن زيارتها، وقد كان متشوقا اليها، بعد أن أصبح منها قاب قوسين أو أدنى، وكانت زيارتها ضمن برنامجه لزيارة المآثر ومواقع الغزوات. كما حاول الأمير بن ابراهيم اقناعه أيضا بالعدول عن زيارة بدر لوعورة الطريق، ولكنه أصر على زيارتها في طريق عودته الى ينبع للسفر منها الى مصر.

وقد اهتمت الأمارة به، وزودته بكل ما يحتاج اليه في رحلته التي كانت تعتبر مغامرة من المغامرات. وغادر المدينة في العاشر من محرم ١٣٥٥ هـ، وقد كان في توديعه في عروة وابيار علي، جمع من أدباء المدينة المنورة الذين لازموه أثناء اقامته فيها.

وقد أشار الدكتور الراحل الى المتاعب التي واجهها أثناء رحلته تلك، في كتابه الذي أصدره عن رحلته الى الأراضي المقدسة، «في منزل الوحي».

وكان لا بد أن يكون للصحافة نقيب في هذه المقابلة، خاصة اذا عرفنا أن الأستاذ عثمان حافظ، قد صاحبها منذ فجر حياتها، وهي تحبو في خطواتها الأولى، فقلت:

— الحياة الصحفية ملأى بالمواقف الحرجة، والمواقف الطريفة، فما هو أطرف وأحرج موقف مرّ بكم؟

* الصحافة كلها متاعب، ومن عرفها بأنها مهنة البحث عن المتاعب، فقد وصفها على حقيقتها، غير أن لذة الصحافة في متاعبها، فاطلبوا اللذة في التعب، واطلبوا التعب في الصحافة. والمتاعب التي صادفتنا ونحن نصدر «جريدة المدينة المنورة» أكثر من أن يسطرها قلم عاجل: متاعب أدبية، وفنية، واجتماعية، ومالية. وأهم هذه المتاعب وأشقها المتاعب المادية، وقد لازمتنا منذ أن فكرت أنا وأخي علي في تأسيس المطبعة واصدار الجريدة.

عندما كنت في مصر، لشراء المطبعة احتجت الى بعض المال، فطلبت من أخي ارسال نقود، فأرسل لي سبعين جنيها اقترض بعضها، وعدت الى جدة ومعي ثمانية عشر طردا تشمل أجزاء المطبعة ومعداتها. ولم يبق معي سوى ثلاثة جنيهات مصرية صرفتها في سفري الى الطائف لمقابلة الشيخ محمد سرور الصبان، لتزويدنا بسيارة ننقل بها أجزاء المطبعة من ينبع الى المدينة، وقد ساعدنا فعلا في نقلها. وكنا اذا نفد الورق أو احتجنا الى حروف أو أي نفقات أخرى للجريدة، اضطررنا الى أن نصرف من الجيب الحر، الذي انتهى في آخر الأمر الى المصاغ والمتاع.

وكانت نفقات المطبعة والجريدة فوق طاقتنا، اذ كانت مرتبات عمال المطبعة أكثر من ثمانين ريالا شهريا، وقيمة العدد من الجريدة قرش واحد، ووارداها من المبيعات لم يكن يكفي لسد نفقات السكر والشاي وتقديم العشاء لعمال المطبعة في ليالي صدور الجريدة، ولم يكن العشاء سوى «شريك ومقلي»، وكانت قيمة الاشتراك السنوي فيها ثلاثة ريالات سعودية فقط، ومشترك يدفع وعشرة لا يدفعون، ومن المشتركين من رد الجريدة عندما طالبناه بالاشتراك. هذه بعض متاعب الجريدة المادية، وهي أيضا من المواقف المحرجة.

أما أطرف موقف — أو هو من أطرف ما مرّ بالجريدة — هو أن بعثة، معظم أفرادها من الأتراك، زاروا المملكة، ورغبوا في زيارة المدينة المنورة في عودتهم الى بلادهم، وصادف الموعد المحدد لوصولهم — يوم صدور الجريدة، والمعتاد أن تصدر الجريدة صباحا، ولكننا أرجأنا صدورها الى حين وصول البعثة، ونشر خبر الوصول، أملا في كسب صحفي.

وقد أقام الأمير عبد الله السديري — رحمه الله — مخيما في المطار لاستقبال البعثة، خصص منه جناحا لحفلة الغداء التي سوف يقيمها تكريما لهم، لأنه لم يكن يوجد في المطار في ذلك الوقت أماكن تصلح لاستقبال الضيوف. وكانت جميع المعلومات عن هذه البعثة متوفرة لدينا. وقد كتبنا الخبر، حسب المعلومات التي لدينا، وسلمناه لأخينا خالد، وأخبرناه أن يضع شخصا عند أقرب تلفون، لنتصل به في المطار ونعمده باللازم، اذ لا يوجد في ذلك الوقت تليفون بمكتب الجريدة، واتجهنا الى المطار مع المستقبلين وأوصينا الشيخ حسن مشرف، مدير لاسلكي المطار آنذاك، أن يخبرنا عن مراحل رحلة البعثة. وفي حوالي الساعة السادسة والنصف ظهرا، حلقت طائرة البعثة في سماء المدينة، وبقيت تحوم حول مطار المدينة المنورة تمهيدا للهبوط. واغتناما للوقت عمدنا أخانا خالد بطبع الخبر، وارسال خمسين نسخة من الجريدة الى المطار لتوزيعها على أعضاء البعثة.

وكان في الخبر الذي نشر، تفصيل واف عن البعثة ومهمتها وأسماء أعضائها، وعن استقبال الأمير وأعيان المدينة ووجهائها وكبار المسؤولين والموظفين الرسميين للبعثة في المطار، واقامة حفلة الغداء الفاخرة التي حوت ما لذ وطاب من الأطعمة، ثم سفر البعثة في طريقها الى تركيا.

وطبعت الجريدة ووصلت الخمسون نسخة الى المطار، والطائرة ما زالت تحوم فوق أرض المطار، وتارة تبعد عنا وتارة تدنو منا، وهي على اتصال مستمر بمطار المدينة.

وعرضنا العدد على الأمير السديري، رحمه الله، في المطار، فقال: «استعجلتوا».

فقلنا له نريد كسبا صحفيا وسوف يقرأ هذا العدد مساء اليوم في أنقرة، فقال: «أحسنتوا».

وأخيرا وبعد فترة طويلة، أخبرنا السيد حسن مشرف مدير لاسلكي المطار بقوله: «الظاهر أن الكابتن غشيم» لقد عاد الى جدة، ولم يستطع النزول في هذا المطار، وتابعنا الطائرة، ونحن في منتهى الحيرة الى أن غابت عن أبصارنا،

وعدنا الى المدينة مسرعين وتركنا الأخوان الذين طلعوا لاستقبال البعثة التركية يتناولون طعام الغداء الذي أعده الأمير للضيوف ، وعدنا لنعالج مشكلة ما نشر .

وزرنـا الأمير السديري — رحمه الله — ولا حديث الا حديث البعثة التركية التي لم يقدر لها الهبوط في المدينة ، وما كتبته الجريدة عن هذه البعثة . وقد أخبرنا الأمير أن عددا من المزارعين في سلطانة ، قد قابلوه وأخبروه بأن طائرة جاءت ظهرا الى مطار « سلطانة » ، وانها حاولت الهبوط فيه عدة مرات ، وفي احدى محاولاتها حكت عجلاتها بالأرض فأثارت غبارا عاليا ، ثم عادت من حيث أتت ، وتبين ان سوء تفاهم حدث بين القبطان والمطار ، اذ جاء القبطان الى مطار المدينة القديم الذي أسسته حكومة الأتراك في « سلطانة » ، وكانت الطائرات التركية تهبط في هذا المطار ، ويقع المطار بين جبال (الجماوات) الثلاثة ، وسبق ان اصطدمت احدى الطائرات التركية في عهد فخري باشا باحدى الجماوات وقتل جميع ملاحيها ، وعندما حاول القبطان الهبوط في هذا المطار ، وجده ضيقا جدا ثم لم يجد حركة للمستقبلين ، وهكذا كان مديـــر اللاسلكي يظن أن الطائرة تحاول النزول في المطار الحالي شرقي « العاقول » بينما كان القبطان يظن أنه المطار الوحيد الذي كان يحوم حوله ، وعاد من حيث أتى ، وعلى اثر هذه الحادثة أزالت الحكومة العلامات التي تدل على وجود مطار هناك .

ومضت أكثر من ساعة قضاها الأستاذ عثمان حافظ كتابة وتفكيرا ومراجعة لمجلدات أعداد جريدة المدينة ، يتناول بعضها من جانبه تارة ، ويطلب بعضها الآخر من « الأرشيف » تارة أخرى ، فقلت أحسبني قد أكثرت عليك بأسئلتي فليكن هذا هو سؤالي الأخير :

— في حياة أغلب الناس نقطة تحول تغير من مجرى حياتهم ، فهل في حياتكم ما غير مجراها ، من طريق الى طريق ، وهل أنتم راضون اليوم عن هذا التحول ؟

• اشتراكي مع الأستاذ عبد الحق النقشبندي في مطبعة « طيبة الفيحاء » ، وفي توريد الصحف والمجلات ، والكتب الأدبية والعلمية في عــام ١٣٤٧ هـ . هذا الحدث ، أو هذه النقطة هي التي غيرت مجرى حياتي ، فقد كان اتجاهي في العمل والكسب هو العمل في احدى وظائف الدولة ، وكنت وقت اشتراكي مــع الأستاذ النقشبندي أعمل سكرتيرا لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان راتبي آنذاك أربعمائة وخمسين قرشا سعوديا ، وبعد أن ألغيت سكرتارية هيئة الأمر بالمعروف في عام ١٣٤٩ هـ ، عينت مدرسا بالمدرسة الابتدائية براتب قدره خمسمائة قرش ، وهي عبارة عن خمسة وأربعين ريالا .

ومزاولتي لعمل الطباعة عــلى المطبعة الصغيرة التي أملك نصفها ، بدأ يوحي الي بأن علي واجبا أدبيا آخر ، وهو اصدار جريدة بالمدينة المنورة ، وكان الأدباء هناك يبحثون هذا الموضوع بنشاط كبير ، ويلقون الأضواء على مطبعة « طيبة الفيحاء » ، ظنا منهم انها تستطيع اصدار جريدة . وكلما تطور البحث حول اصدار الجريدة تبلورت تلك الفكرة لدي ، وأخذت تقوى تدريجيا حتى شغلتني عن أي عمل آخر ، ودفعتني الى أن أستقيل من وظيفة التدريس بالمدرسة الابتدائية لأتفرغ لعمل الطباعة وتوسعته ، بحيث يمكن اصدار الجريدة من هذه المطبعة .

وأجريت عدة تجارب — على المطبعة — خرجت منها بنتيجة مخيبة للأمل ، وهي أن هذه المطبعة التي كان حجم طوقها لا يزيد على ١٨×٢٨ سم ، والتي كانت تدار باليد ، لا تستطيع أن تؤمن اصدار جريدة عليها مهما زودت من حروف ووسائل طباعية .

وفي محاولة تقوية مطبعة (طيبة الفيحاء) ، فاوضت السيد عبد الحليم أبو خضير أثناء زيارته للمدينة المنورة ، وهو أحد تجار المطابع بمصر ، وعلمت بعد التفاهم معه عن أسعار المطابـــع والحروف ، ان امكاناتي المادية لا تساعد على شراء مطبعة بكامل معداتها يتسنى لها اصدار جريدة ، ثم حاولت التفاهم مع الشيخ يوسف ياسين ، رحمه الله ، وكان رئيسا للشعبة السياسية والمشرف على الصحافة والطباعة — في ذلك الحين — حاولت تأسيس فرع لمطبعة « أم القرى » بالمدينة المنورة ، على أن تقوم المطبعة باصدار جريدة بالمدينة تنشيطا للحركة الأدبية ، فباءت تلك المحاولة بالفشل ، فلم أجد استجابة منه لهذا الأمر ، ثم حاولت ثانية مع الشيخ كامل كردي — رحمه الله — لتأسيس فرع « للمطبعة الماجدية » التي كان يمتلكها (آل الكردي) بمكة المكرمة ، وعلمت منه أنه هو أيضا كان يدرس الفكرة نفسها ، وانه فاوض بعض الأصدقاء في تولي ادارتها ، وانه قد تم هذا الأمر قبل اتصالي به ، وفهمت منه انه لا يريد شراكة في تأسيس فرع المطبعة ، بل يريدها فرعا تابعا لمطبعتهم ، وقال فيما قال انه لا يعترف بضرورة وجود مطبعة بالمدينة ، وغمز « مطبعة طيبة » — رحمه الله — بكلام دفعني الى الاقدام والمغامرة في تأسيس مطبعة كبيرة ، واصدار جريدة مهما كلف الأمر .

ولقد عرضت علي عدة عروض من بعض الأصدقاء لمشاركتي في تأسيس مطبعة كبرى ، وأخيرا قررت أنا وشقيقي علي حافظ أن نقوم بالأمر دون أن يكون معنا أي شريك آخر ، وأسسنا « مطبعة المدينة المنورة » وأصدرنا جريدة « المدينة المنورة » وقد ظهر العدد الأول منها في محرم ١٣٥٦ هـ ، وكانت أسبوعية في أربـــع صفحات ، وكنا نعتزم تطويرها وتقدمها ، وحالت الظروف المادية دون تطويرها السريع ، ولكن استطعنا اصدارها في ست صفحات بدلا من أربع صفحات وذلك ابتداء من العدد ٧٧٢ الصادر بتاريخ ٢٩ رجب ١٣٧٨ هـ ، ثم اصدارهـــا مرتين في الأسبوع وذلك في يومي الخميس والاثنين ابتداء من العدد ٨١٣ الصادر بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ ، وقد استمرت في الصدور على هذا الحال الى أن أصبحت يومية اعتبارا من العدد ١١١٤ الصادر في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٨٢ هـ . وفي أول شهر ذي القعدة من عام ١٣٨٣ هـ تولت ادارتها مؤسسة المدينة للطباعة ، حسب نظام المؤسسات الصحفية الذي أصدرته الدولة في ذلك الحين . وكنت أنا وابن أخي الأستاذ محمد علي حافظ عضوين مؤسسين فيها ، ولا زلنا . فاشتغالي بأعمال الطباعة البدائية الذي لم يكن في بادىء الأمر سوى ازجاء للوقت ، كان سببا في تغيير مجرى حياتي من العمل الوظيفي الى العمل الحر ، فقد عشت الأعمال الطباعية والصحفية لدرجة الغواية ، وكنت منساقا بعاطفتي في هذا الأمر لا بعقلي ، فكانت احدى المغامرات الناجحة التي ترتكز على العقيدة والحزم والتصميم .

وقد عدت الى العمل في وظائف الدولة في عام ١٣٦٠ هـ ، وذلك بعد احتجاب الجريدة عن الصدور لعدم توفر الورق أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبقيت موظفا طوال تلك المدة الى أن وضعت الحرب أوزارها واستعادت الجريدة نشاطها الصحفي ، لأن العمل الصحفي والطباعي لا يغطي النفقات والتكاليف ، فتركت العمل الوظيفي في أول عام ١٣٨٦ هـ . وفي أواسط هذا العام اختارتني مؤسسة المدينة لرئاسة تحرير جريدة « المدينـــة المنورة » وعدت لمزاولة العمل الصحفي بعد استراحة أربع سنوات « وعادت حليمة لعادتها القديمة » ■

ع . أ .

في كنف الظلام

للشاعر الياس قنصل

ادلهمّ الظلامُ بعد احتجابِ البدرِ في الأفق حيث تأوى النجومُ
وسرى في الدجى سكونٌ عميقٌ وتلاشتْ معالمٌ وتُخومُ
فكأن الغبراء أغمي عليها والسما نابها مصاب أليمِ
وكأنّ الحياة قد سمّرتْها رهبةٌ غالبٌ عليها الوجومُ

أعرضَ الناسُ عنه لا لشَرورٍ أو معاصٍ أثارها أو أتاها
أعرضوا عنه منذ رأوا انه في غمرات السقام والبؤس تاها
لم يجدْ بينهم صديقاً كريماً يصرف النفسَ عن وبيلِ أساها
فنأى عن ديارهم يدفع الوحدةَ بالصبر ، مغضياً عن أذاها

هو شيخ قسا الزمان عليه ورماه بفادح النكباتِ
خائر العزم قد تجاوز تسعيناً من العمر ، شارد النظراتِ
ظاهراتٌ ضلوعُهُ ، لا يغطّي جلدَه غيرُ حفنةٍ من رفاتِ
ليس يمشِي اذا خطا انما يرصدُ رجليه مخلبُ العثَراتِ

واعترى قلبَهُ الضعيفَ اضطرابٌ ووجيفٌ كالوخز بالأشواك
وأصابته نوبةٌ أنذرتْه انه بات والرّدى في عراكِ
فارتمى يلمس الترابَ بوجه راجفٍ ، وهو فاقد الادراكِ
فاذا روحه تفيض أنيناً وإذا جسمه بدون حراكِ

ما بكى الميتَ دمعُ راثٍ ولا اهتمّت به لحظةٌ من الأبناءِ
انما الرعدُ للسماءِ نعاهُ بحروف من برقه الوضّاءِ
وهمى الغيثُ حاملا في ثناياه ترانيم رحمةٍ وعزاءِ
ما رثى الشيخَ في الثرى دمعُ باكٍ فبكتْ موتَهُ دموعُ السماءِ

الشعر العربي والملاحم

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

كتب «فولتير» ذات مرة يقول: «ان الشعب الفرنسي بعيد عن الملاحم، فلم ينتج، ولن ينتج ملحمة». لقد قال هذا بعد أن نظم ملحمته المشهورة «الهنرياد» التي تحدث فيها عن الملك «هنري الثامن»، وحروبه، وبطولاته. وسقطت هذه الملحمة سقوطا ذريعا، كما أخفق من قبله الشاعر «رونسار» في ملحمته «الفرنسياد» التي سكب فيها فصول قصة الملك «فرانسوا الأول» وحروبه، وبطولاته. فكلا الشاعرين الكبيرين عانى مرارة الخيبة مما دعا «فولتير» الى سلب الشعب الفرنسي روح الملحمة. غير أن فولتير ما كان ليدري أن الشعب الفرنسي استطاع أن يسجل ملحمته الرائعة «أنشودة رولان» التي مثلت حروب شارلمان مع العرب في الأندلس، وخفقت فيها البطولات كما تصورها أولئك الشعراء الذين أخرجوها، ونفضوا فيها صورة خلابة لما يحتدم في نفوسهم من تمجيد لشعبهم وبطولته. ومع أن هذه الملحمة نظمت في القرون الوسطى، الا أن الفرنسيين لم يعرفوها الا في القرن التاسع عشر اذ كانت راقدة في أحد الأديرة هناك، ولما ظهرت للوجود، وقرأها الناس وجدوا فيها صورة فرنسا الجميلة كما قالوا، لأنها مثلت مآتيهم وجلائل أعمالهم، ووجدوا فيها الصورة النفسية والروحية لأمتهم.

ومن الطبيعي أن يتجه الشاعران الفرنسيان الى نظم الملحمة، فقد اطلعا على ملحمتي «الألياذة» و «الأوديسة» لهوميروس وشاقتهما هذه الروعة التي تسيل فيهما، فأرادا أن ينهجا على غراريهما. بيد أن عصرهما لا يتسق مع روح الملحمة، فخابا في مهمتهما لا لوهن في شاعريتهما بل لأن طبيعة الملاحم لا تتفجر الا في طفولة الشعب عندما تكون العواطف غضة والنفوس متفتحة بسذاجة لالتقاط البطولات الخارقة، والأساطير البعيدة. وملحمتا «هوميروس» عندما عرفتهما أوربا، أثارتا الكثير من الحماسة لنظم ملاحم تحاكيهما، «فجون كيتس» عندما اطلع على ترجمة انجليزية لهاتين الملحمتين عبر عن اعجابه الشديد بهما باحدى قصائده الحية التي أزجى فيها تحيته لصاحبهما. وهكذا نجد أن شعر الملاحم يسبق كل ألوان الشعر الى الوجود، ثم يتطور الى شعر غنائي وتمثيلي. ومرد هذا الى تطور النفس البشرية، وانسجامها مع أجواء الشعر، التي تعزف الأنغام المتباينة وتطورها في مراحل نفسية وعقلية تتطلب لونا من الشعر خاصا. فشعر الملاحم، أو الشعر القصصي يتدفق في الفجر التاريخي الأدبي لأمة من الأمم ويرافق الطفولة الأدبية، ويدور حول البطولة الخارقة للأمة متكئا على الأساطير التي تمجد الشجاعة والفروسية الخارقة. فالملحمة بعبارة وجيزة تقوم على أحداث مذهلة تهول الوقائع، وتنداح فيها الأساطير التي يعيش عليها الشعب، وتهدهده بنغماتها. وهكذا تنتفض فيها صورة ماجدة للشعب الذي تحكي الملحمة حياته، فتضخم الحوادث، ويريق الخيال البعيد أمواجا من الخوارق التي تقوم عليها الملحمة.

وتتألف الملحمة عادة من آلاف الأبيات، تنفض ضمير الشعب، وتمثل روحه ومثله، فهي أسطورة حياته، ويقوم بنظمها أكثر من شاعر، فهي تتألف من الأغاني البارعة المنبثقة من عدة قرائح نابغة، ثم يأتي شاعر عميق الشمول، ذو خيال خصب، فينشد الأنشودة الكبرى، فتنسب الملحمة اليه، وقد خضلها قلب الشعب، وأفاء عليها من عبقريته المتوقدة، وضمخها بعقول الأجداد، وسنى عبقهم الفواح.

ولم تعرف الأمة العربية ملحمة تسجل حياتها، وروعة بطولتها، بينما عرفت الأمم السامية الأخرى ملاحم رائعة لا تزال حتى الآن مثار اعجاب عارفيها بما حوته من شاعرية مجنحة، وخيال متدفق، وأساطير مذهلة، وبطولات متحدية، وفهم للطبيعة البشرية. فالبابليون عرفوا أقدم ملحمة في العالم، هي «جلجميش» التي ترقى في تصوير أحداثها الى القرن الثامن عشر ق. م. كما عرف الفنيقيون في «أوغريت» ملاحم رائعة تعرف باسم «ملاحم رأس شمرا» التي هزت العالم بما حوته من حكمة وروعة وسمو في كثير من مناحيها.

أليس من المعقول اذا أن يكون الشعراء العرب هم الذين أنشأوا الملحمة العربية في طفولة أمتهم، ثم تبددت وضاعت في مطاوي الزمن، وعفت عليها الأيام؟ ان الشعب العربي يتفجر بالشاعرية وتمجيد البطولات، فلا غرو اذا اتجه الى شعر الملاحم كما تحتمه طبيعة الأشياء. أقول هذا ونحن لا نعرف شيئا عن الحقبة المديدة التي عاشها العرب قبل العصر الجاهلي. فالشعر الجاهلي الذي وصل الينا لا بد من أن يكون قد سبقه شعر كثير اذ جاءنا مكتمل الاداء، رائع النظم والديباجة، وهو شعر غنائي محض. والمعروف أن التطور الأدبي يحتم أن يتسلسل الشعر ملحميا ثم يتطور الى غنائي وفق رقي الأمة، وسيرورتها في الحياة المتشابكة وتعقيداتها. فليس من المعقول أن يولد الشعر العربي غنائيا، فهذا أشبه بطفل يولد، وله أسنان.

ويقول الجاحظ أن الشعر العربي حديث الميلاد، غير متقادم العهد، وهو لا يرقى الى أكثر من مائة وخمسين عاما قبل الاسلام. وهذا الرأي ساذج الى حد بعيد، فالشعر العربي ولد منذ أن وعى العرب في الجزيرة وجودهم. فقد هتفوا بالشعر، ومثلوا فيه عواطفهم ووجدوا فيه الأنشودة العذبة التي يترنمون بها حاملة في طياتها خفقة قلوبهم. غير أن هذا الشعر قد تناثر أبادید، وليس لدينا سوى الافتراض الذي يتسق مع التطور الفني لوجوده. لذلك أعتقد أن العرب قبل العصر الجاهلي قد نظموا روائع الملاحم الشعرية التي تفيض بالخوالب، وعاشوا على أنفاسها الحية، وأغانيها الماجدة، وبطولاتها اللاهبة، ثم أسدل عليها الستار، وطوتها يد النسيان.

والشعر الجاهلي الذي وصل الينا بعيد عن الملحمة لأن العرب في هذه الفترة قد اجتازوا مرحلة الطفولة، وتطوروا الى الشعر الغنائي، وأصبحت لديهم الأصول الشعرية الغنائية التي نأت بهم عن الملحمة، وتجاوبوا مع البيئة الصحراوية التي أملت عليهم هذا اللون من الشعر الذي كان قصة حياتهم، ومجلى نفوسهم، ومستودع آمالهم وآلامهم.

لقد كان من المستحيل على شعراء العرب في الجاهلية أن يبتكروا الملحمة المنشودة لأسباب عديدة أهمها:

• العرب في الجاهلية لم يميلوا الى القصة وسردها ، وتلوين أخبارها . فشعرهم كان يصور نبضات أفئدتهم ، وعواطفهم الذاتية ، يفنونها باندفاع وصدق يمثلون فيها حياتهم ، ويجلون فيهـــا مثلهم العليا التي أملتها عليهم الصحراء ، والتي تتمثل في كلمة « المروءة » وما ينحدر منها من صفات الكرم والشجاعة ، واغاثة الملهوف ، وحفظ الجوار ، وغيرها من الخصائص الريقة التي كانت ضرورة دفاعة للحياة في الصحراء .

• الخيال الصحراوي محدود ضيق الأفق لا يترامى الى تجسيم الأمور ، فهو لصيق في البادية الضئيلة المناظر ذات الألوان الواحدة ، والرؤى الرتيبة المتكررة التي لا تتلاحق مناظرها في تجديد ، ولا تتابع على الخيال في لوحات غنية متنوعة ، فتلونه ، وتدفعه الى ابتكار الصور الفنية التي تغني الملحمة . فتشبيهات الشعر الجاهلي مادية محسوسة مما يدل على أن الخيال البدوي كان محدودا مفرغا في قوالب محدودة . فهو لا يستطيع الطفرة الى عوالم بعيدة وراء المنظور ليبتكر قصصا يسرح فيها الخيال الى أبعد مدى . وهذه القصص التي يبتكرها الخيال هي مادة الملحمة ، وحياتها ، وأعصابها والدم الذي يتدفق في شرايينها ، فيمنحها الحياة والقوة والتمجيد .

• تعتمد الملاحم على الحروب ، فهي مادتها الأصيلة ، وحول هذه الحروب تنسج البطولات والخوارق ، وينشأ الأبطال الكماة الذين يذودون عن الأمة ، ويؤثلون مجدها التليد ، وعزتها الشامخة ، ويريق الخيال الفسيح على هؤلاء الأبطال المساعير صفات مثلى لا تلتصق بالبشر ، فيصبحون أسطورة تتهادى في بطولة شادخة بل يطفرون عن مستوى البشر ، ليتاح لشعراء الملاحم غناء ملاحمهم الفاتكة ، وخصائصهم النبيلة ، وحبهم الوامق ، ومعاركهم التي كسبوها بحد سيوفهم ، وقهرهم الأعداء ، والفوز بالنصر الذي تزهو به الأمة . وأيام العرب في جاهليتهم وغزواتهم محدودة ، فهي لا تتجاوز معركة تتصاول فيها قبيلتان يوما واحدا يقتل فيها بعض الأفراد . وحرب البسوس التي دامت أربعين عاما كما تقول الرواة لم تتعد أربعين يوما التقت فيها القبيلتان المختلفتان في أزمنة مختلفة ، وعدد القتلى فيها ضئيل بثيل . فليس من المعقول أن تكون هذه الأيام القلائل مادة غزيرة لشعر ملحمي يتفنن فيه الشعراء ، بل كان حسبها هذه القصائد الغنائية التي كان يشدو بها شعراؤهم يزهـــون ويفخرون في حماسة دافقة ببطولاتهم وانتصاراتهم.

• دين العرب في الجاهلية وثني ضيق الرحاب كان يقوم على الأصنام ، فكان لكل قبيلة صنم أو حجر تعبده ، ويصنعونه أحيانا من التمر ، وعندما يجوعون يأكلونه . فلم تكن لهذه الأصنام تلك المكانة القدسية التي تفيض بالقلوب هــذه الينابيع الزاخرة من العقيدة التي تنسج حولهـا القصص الشيقة ، والأساطير الرائعة ، فالعرب في الجاهلية لم يروا لكل ظاهرة من ظواهر الوجود الها خاصا ينسجون حوله الأساطير كما فعــل البابليون والفنيقيون الذين استطاعوا أن يجدوا آلهة متعددة لمختلف ألوان الطبيعة ابتدعوا حولهــا الأساطير المليئة بالحياة ، أو كما فعل اليونان الذين برعوا في ابداع آلهة متعددة خلعوا على كل منها الظواهر البشرية المثيرة للخيال ، الحافزة على الابتكار . والملحمة لا تستطيع الاستغناء عن هذه الآلهة لأنها مادة أساسية فيها ، فهي التي تضفي عليها الخوارق التي تمنح الملحمة الحياة والقوة ، بتدخلها في أعمال البشر ، وصراعها مع بعضها البعض ، ومع الناس . والحماقات الكثيرة التي ترتكبها يجد فيها الشعراء مادة غزيرة لا تنضب لشعرهم الملحمي .

• من المعروف أن الملحمة تتكون من آلاف الأبيات ، والقصيدة العربية التي ارتضت القافية والروي لا تقدر أن تكون لها آلاف الأبيات ، فالأذن العربية لذّ لها هذه القافية الردادة ، تقرع سمعها ، فتلذها بنغمتها الواحدة . ومما لا شك فيه أن هذه النغمة الرتيبة في القصيدة راجعة الى البيئة التي نجمت فيها وظهرت .. وهي الصحراء ذات المنظر الرتيب الذي لا يتكرر .

• الشعر العربي في الجاهلية لا يميل الى السرد والأخبار والقصص ، وانما هو وجداني ذو نزعة غنائية تأتت من طبيعة العربي ، وطبيعة البادية المجلوة السماء التي تتهادى فيها النجوم المتألقة .

لهذه الأسباب مجتمعة لم ينظم شعراء الجاهلية الملحمة التي تمثل حياتهم ، وأشواقهـــم ، وبطولاتهم . أما كيف قبلنا الافتراض الذي افترضناه في مطلع هذا المقال بأنه من المحتمل أن يكون العرب قد عرفوا الملحمات ، ونظموها قبل العصر الجاهلي .. فهل تغيرت البيئة العربية .. حتى تتيح للشعراء ابتكار الملاحم وانشاءها ؟ الواقع أن الجزيرة العربية كانت في تاريخها السحيق تفيض بالأنهار والخصب والاخضرار ، مما يتيح فسحة في الخيال البعيد ، وحياكة الأساطير التي تتسق مع هذه الألوان . ودليلنا على هذا أن البابليين والفنيقيين الذين نزحوا من الجزيرة العربية ابتكروا الملاحم لأنها كانت حية في نفوسهم ، فوجدوا الأرض الخصبة ، بمناظرها الخلابة ، ومشاهدها الجميلة ، فجنح خيالهم الى ابتكار الأساطير التي هي ركيزة الملاحم وصلب مادتها .. فهم قد حملوا معهم الى البلاد التي هاجروا اليها أصول هذا الفن الشعري وقواعده حتى اذا ما استقر بهم المقام في وطنهم الجديد غنوا ملاحمهم . فما يمنع العرب الذين ظلوا في جزيرتهم الكثيرة الخصب والمياه أن يحلقوا في دنيا الملاحـــم ؟ وتعرضت الجزيرة لجفاف في مختلف عصورها حتى اذا ما عرفنا العرب في جاهليتهم كانت الصحراء طغت على قسم كبير من الجزيرة ، وحددت معالم حياة سكانها وفق هذه البيئة الجديدة التي أنتجت هذا الشعر الغنائي الذي يوائم طبيعتها . وبعد أن تطور العرب في مراحلهم الفنية الى الشعر الغنائي الذي يعبر عن عواطفهم وذاتيتهم ويصور مشاعرهم وأحاسيسهم فمن الطبيعي ألا يحيلوا أو يجنحوا الى نظم الملاحم .

وفي عصرنا حاول بعض الشعراء سد هذه الثلمة الموجودة في أدبنا ، فجنحوا الى نظم ما أسموه ملاحم كما فعل الشاعر أحمد محرم صاحب الألياذة الاسلامية . ومن الطبيعي أن يخفقوا في الهدف الذي توخوه لأنه يستحيل نظم الملاحم الا في طفولة الأمـــة . فالشاعر الانجليزي الكبير « ملتون » نظم ملحمته المشهورة « الفردوس المفقود » في فجر الأدب الانكليزي ، ومع هذا فان الناقد « ماكولي » عندما درس هذه الملحمة ، رأى لو أن الزمن تقدم بملتون لكان شعره الملحمي أرقى وأوفر فنية وجمالا ، ولسرت فيه روح الملحمة زاخرة بالحياة .

ان ما نظمه شعراؤنا المحدثون لا يعدو أن يكون لونا من الشعر القصصي الذي تعوزه عناصر القصة الصحيحة . فليس له من القصة سوى السرد والحكاية . وهو بجملته يعتبر لونا من ألوان الشعر الغنائي . فأحمد محرم ، لم يدرك معنى الملحمة ولا روافدها الفنية ، وعناصرها التي تقوم عليها وتمنحها الحياة .. فقد اقتصر على نظم الحقائق التاريخية الاسلامية ، وهذا لا شك عمل رائع وجليل ، بيد أنه بعيد عن روح الملحمة وجوهرها الأصيل .

وعــدم وجود الملحمة في ادبنا لا ينقص من قيمته ومكانته المرموقة ، فهو أدب حي عبر عن وجدان الأمة العربية في عصورها الزاهية ، ونفض أمامنا صورا مفعمة بالحياة لذاتيتنا ، وروحنا وآمالنا وآلامنا ■

مع الظرفاء

بقلم الاستاذ فهمي بدوي

الظرفاء أشخاص تميزّوا بموهبة خاصة ، غلبت عليهم فـي جميع أطوار حياتهم ، حتى باتوا ندماء ومسامرين وأهل فكاهة ، يلقون النكتة عن بديهة حاضرة ، ويذهبون في مزحهم الى حدّ السخرية من أنفسهم ، والتهكم على جلسائهم ، مهما تكن منازلهم في الحياة الاجتماعية .. لا رغبة في النيل منهم ، بل رغبة في رسم البسمة على الشفاه ، واثارة القهقهة تنطلق من أعماق الحناجر .

ولكل ظريف من الظرفاء لون خاص و « طعم » خاص ، فمنهم من تهديهم السليقة الى المزح بالشعر ، كالشاعر ابراهيم ناجي ، والشاعر محمد مصطفى حمام ، والشاعر الزجال حسين شفيق المصري ، ومنهم من يختار لفكاهاتـه اللهجات العامية الدارجة ، ومنهم من يؤثر اللغة الرصينة في مزحه ودعاباته . وكلهم يقول النكتة عن غيره من الناس ، ويقبلها متى قيلت فيه ، فالحياة في عرفهم أهون من أن تقضى في المشاحنات والمباغضات ، وما اليها .

وأغلب الظرفاء المعروفين ماتوا ودفنت معهم فكاهاتهم ، والذي بقي منها مرويا على الألسنة قليل بالنسبة لما جادت به قرائحهم ارتجالا ، وفي مناسبات غير مهيأة . وانك لو جلست الى ابراهيم ناجي مثلا ، لسمعته يرتجل مئات من الفكاهات اللواذع في ساعة أو بعض ساعة ، ولو حاولت تسجيلها لأعيتك الجهود . ومثله في هذا الميدان الشاعر حمام ، والشاعر عبد الحميد الديب ، وعبد العزيز البشري ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وامام العبد ، وابراهيم الدباغ ، ووليم باسيلي ، ومحمد علي غريب ، والبابلي ، وغيرهم .

وتسعفنا الذاكرة بايراد بعض المفاكهات التي أثرت عن بعض هؤلاء الظرفاء ، فمن ذلك أن الشاعر ابراهيم ناجي أراد أن يهجو طفيليا من جلسائه ، فخاطبه بقوله .

يـا عبقريـا فـي شناعته
ولدتك أمك وهـي معتذرة !

وذات مرة ذهب الدكتور ناجي مع مريض مكفوف البصر الى زميل لـه من أطباء العيون ليوصيه خيرا بالمريض عند اجراء جراحة له في عينيه . وخاف المريض من الجراحة وتردّد في اجرائها ، فقال له الطبيب الجراح : اطمئن ، ألا تثق بي ؟ . فقال ناجي : ثقته فيك عمياء !

واتفق أن دعي الدكتور ناجي الى حفل قران ، وجلس بين المدعويين الى أن ظهر العريس ، وكان بادي القبح رغم محاولات التأنق البادية عليه . فمال على ناجي جار لـه هامسا في أذنه « العريس بعيد عن الوسامة » . فبادره ناجي بقوله : طبعا يا أخي ، أليس هذا قرانا ميمونا ؟ ومعروف أن « ميمون » من الأسماء التي جرى الناس على اطلاقها على « القرود » وفصائلها .

وكان الدكتور ناجي يحرّر مجلة طبية عنوانها « حكيم البيت » ، وكان شعارها المطبوع على صدرها « الى الأمام » ، ثم تعثرت المجلة واضطرت الى اغلاق أبوابها لكساد سوقها . واتفق أن التقى بالدكتور ناجي صديق له ، فسأله عن حال المجلة . فقال له ناجي : جعلنا شعارها « الى الأمام » ، اشارة الى قرافة الأمام . « والقرافة » هي المكان الذي يدفن فيه الموتى .

أما الشاعر الفلسطيني ابراهيم الدباغ ، الذي مات مبتئسا ضريرا رهين المحابس عـلى حد

تعبيره ، فكان على بؤسه ظريفا من ظرفاء القوم ، وكان مجلسه من أمتع المجالس التي تقال فيها النكتة وترتجل الفكاهة .

وكان الدباغ مريضا فوق هذا بمعدته ، فلم يكن اسما على مسمّى ، وأطرف فكاهاته ما دار حول الطعام ، فقد قابله صديق له ، وسأله :

— كيف حالك ؟ فأجاب « جوعان » !
— ومتى عدت من السفر ؟
— « في اليوم الذي انتقل فيه الحاتي الكبابجي من مكانه القديم الى مكانه الجديد » .
— وما أحسن الأمثال الشعبية عندك ؟
— كلام الليل مدهون بزبدة ، يطلع عليه النهار يسيح .
— وما أقبح الأمثال في رأيك ؟
— ان كان حبيبك عسل ، لا تلحسه كله
— وما أخف الأمراض وطأة ؟
— البول السكري .
— وألذّ الأمثال العربية ؟
— أصاب كبد الحقيقة . وعرف من أين تؤكل الكتف . ورضع لبان العلوم ، واقبال الجياع على القصاع .

أما حافظ ابراهيم وشوقي ، الشاعران الكبيران ، فبينهما مساجلات من لواذع الفكاهات لا تكاد تحصى ، وهي في واقعها تعكس ما كان بين الشاعرين من زمالة ، وما كان بينهما كذلك من تنافس على مجد الشعر .

واتفق ان كان الشاعران يسيران معا متجهين الى بيت صديق لزيارته ، فأراد حافظ أن يمازح شوقي ، فأنشد أمامه :

يقولون ان الشوق نار ولهفة
فما بال شوقي أصبح اليوم باردا ؟

وتنبّه شوقي الى الغمزة المقصودة ، ولكنه كتم رغبة الانتقام في صدره الى الوقت المناسب . حتى اذا بلغا بيت صديقهما وجلسا في غرفة الانتظار ، لمح شوقي طفلا صغيرا يمرح ويعدو في المنزل وهو منتعل حذاء جديدا . فناداه وربت على كتفه ، وسأله عن اسمه ، ثم قال له بصوت مسموع : يا ابني ، لماذا تجري في المنزل هكذا ؟ حافظ على حذائك . وبلغ حافظ النكتة ، وعرف أن انتقام شوقي كان لاذعا » .

وحدث مرة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا نشر في جريدة « السياسة » مقالا بعنوان « شوقي وحافظ » تناول فيه الكاتب هذين الشاعرين بالمقارنة والمفاضلة . فلما اطلع شوقي على هذا المقال عاتب هيكلا لأنه قرن اسمه باسم شاعر ليس من طبقته ، ولا من مستواه . ودرى حافظ بهذا العتاب ، فابتسم قائلا : « لماذا يغضب شوقي ؟ والناس قد اعتادت أن تقول « حافظ وشوقي » تماما كما تقول « زفتي وميت غمر » و « دنيا وآخرة » » .

وروي عن حافظ أنه كان يتلو قصيدته في حفل رثاء الشاعر الراحل اسماعيل صبري باشا ، واتفق أن كان بجوار سرادق الحفل حمار ظلّ ينهق بصوت مرتفع حتى غطّى على صوت الشاعر . وكان حافظ يبالغ في رفع صوته ، ولكن نهيق الحمار كان أعلى . فاضطر آخر الأمر الى السكوت ، وهو متململ لا يدري ماذا يصنع في هذا الموقف الحزين ، والحمار مستمر في نغمته النشاز . وطال صمت الشاعر ، فناشده أحد الحاضرين أن يواصل إلقاء قصيدته ، فجاوبه حافظ قائلا : لما ينتهي حضرة الزميل .

وكان لحافظ صديق ثقيل الظل ، وكان موظفا في احدى الجهات ، فكان عمله يمنعه من مطاردة حافظ في النهار ، أما في الليالي وما بعد الظهر ، فكان الصديق يحل حيثما حل حافظ . وأحيل هذا الرجل الى التقاعد ، فصار يلازم حافظا في كل مكان ، ولا يتركه ساعة من ليل أو نهار . فلما ضاق حافظ به ذرعا قال له : بالله قل لي ، هل أحالوك الى التقاعد أو أحالوك إليّ ؟

وكان عبد الحميد الديب شاعرا بائسا معدما . وقابل في الطريق صديقا له فسأله عن حاله ، فقال عبد الحميد: حي ولكن لا أرزق . واقترح الصديق أن يصعدا معا الى غرفة عبد الحميد على سطح احدى العمارات القديمة ، فقال له الديب واصفا حال الغرفة : أنا فيها كل الأثاث .

أما عبد العزيز البشري فهو بين الظرفاء سيّدهم ، لأن مظهره كان يوحي بالجدّ والصرامة ، فاذا فتح فاه تدفقت منه النكات تصيب الناس جميعا . وحدث أن ذهب الى حديقة الحيوان بصحبة صديقه حافظ ابراهيم . وبعد جولة بين الأقفاص اتجها الى باب الخروج . فداعب صديقه قائلا : حاسب يا أستاذ لئلا يحجزوك هنا . فردّ عليه البشري قائلا : أما أنت ، فلا خوف عليك ، لأن صنفك متوافر في الحديقة !

وكان البشري واقفا مع خمسة من أصدقائه في انتظار ترام الرمل في الاسكندرية ، فتقدم منه رجل سائلا عن الوقت . فأجابه ، ولكن الرجل بدلا من أن ينصرف ، تحول الى الرجال الخمسة وسأل كلا منهم على انفراد عن الساعة ، فأجابوه . ولما تركهم وانصرف سأل واحد من الأصدقاء الشيخ البشري : ومن يكون هذا الرجل ، فقال البشري : « ومن أدراني ، لعله مفتش ساعات » .

وكان الشيخ البشري يحاول اجتياز شارع عريض ، تمرّ فيه أرتال السيارات متقاطرة متلاحقة . وكلما همّ بالعبور ، تراجع خشية أن تصدمه احداها . ومضى عليه وقت طويل وهو في هذه الحال ، يهمّ ويتراجع ، الى أن وقف بجواره رجل من رجال الاسعاف الذي ابتدره قائلا : ولماذا لا تعبر الطريق الآن ؟ فأجابه : حتى لا أتعبكم .

ويروى أن طبيبا وصف للشيخ البشري دواء لعلاج السكري الذي كان يعاني منه ، ولكن الدواء لم يجد نفعا . فلما صادفه الطبيب بعد أيام سأله عن حاله ، وهل أجدى معه الدواء ، فأجابه الشيخ البشري :

نفعني تماما . أخذت منه ثلاث ملاعق ، فضاع مني السعال ودهنت به ساقي ، فزال منها الروماتزم . والباقي جلونا به الأوعية النحاس في المطبخ

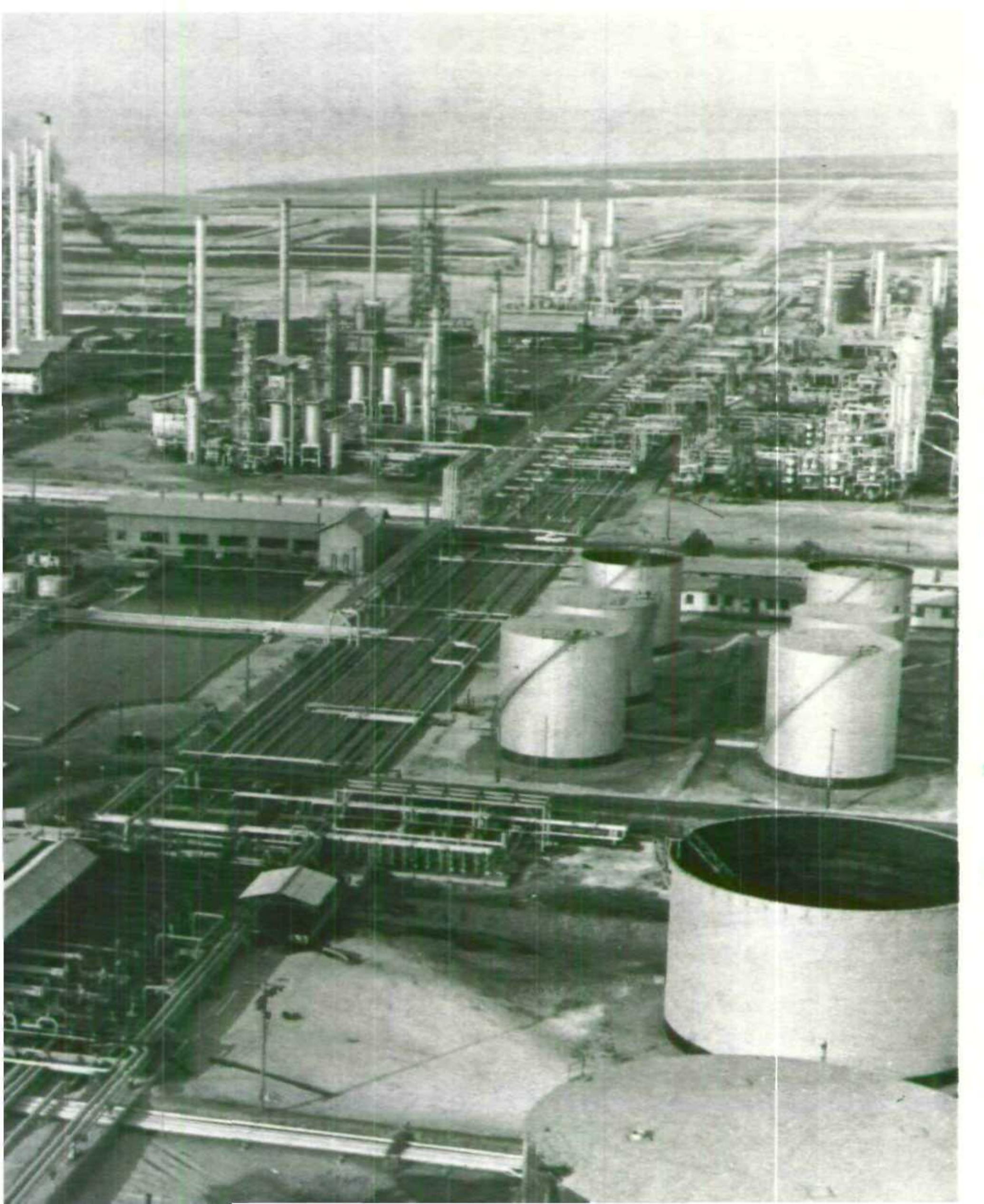
وحدث مرة أن خرج الشيخ البشري من منزله ، وكان الجو شتاء قاسيا ، فالتحف بعباءة ثقيلة وغطّى رأسه بوشاح كثيف اتقاء للبرد . فرآه أحد الثقلاء ، وقال له :

« ماذا صنعت بنفسك ؟ لقد رأيتك مقبلا فحسبتك امرأة » . فردّ عليه البشري قائلا لا بأس ، فالجو بارد عاصف . أما أنا ، فعندما رأيتك مقبلا من بعيد ، حسبتك رجلا . ودعي محمد مصطفى حمام الى مأدبة غداء ، وقال له الداعي الا تلهمك هذه المآكل شعرا ؟ فارتجل حمام :

قد أكلنا الحمام لحما وعظما
وهدمنا جبال كشك صعيدي
وافترسنا الخروف ، فهو شهيد
لهف قلبي على الخروف الشهيد

وحديث الظرفاء مقتضب مهما طال ، لأن كثيرا من الفكاهات التي تلقى في مجالسهم هي من النوع الذي يقال ، ولا يدوّن ، ويروى ولا يسجّل . وقد كانت للفكاهة في زمن غابر مجلات متخصصة ، تستعين على اضحاك القارىء بما تنشره من رسوم وأشعار ومطارحات ومساجلات فكاهية ، ولكن هذه المجلات اندثرت ، ولم يبق منها الا أركان للفكاهة هنا وهناك ■

مراحل تكرير
الزيت الخام

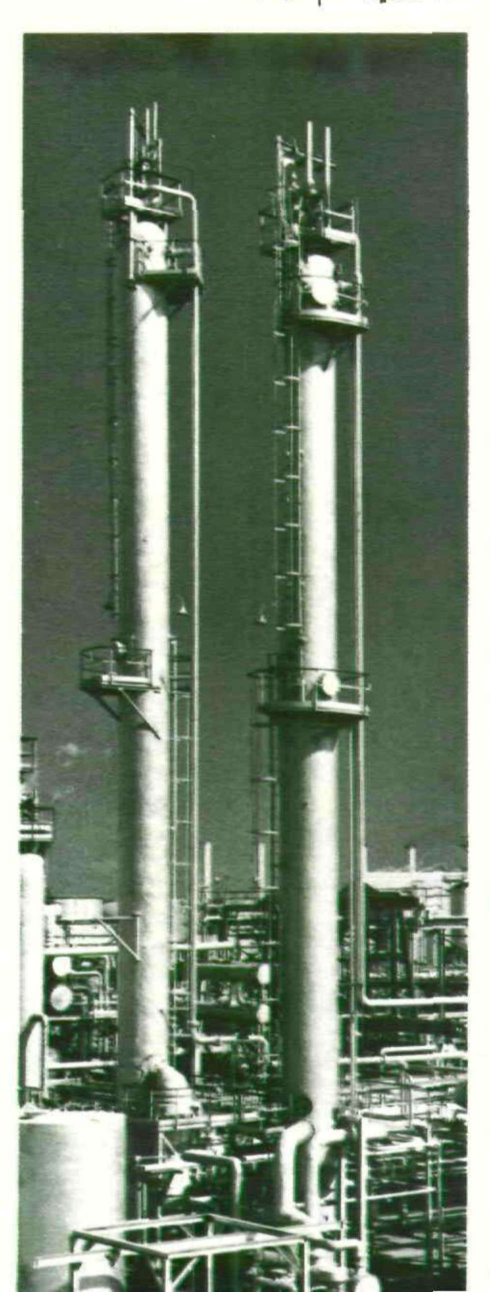


يشتمل الزيت الذي يستخرج من باطن الأرض على مئات الآلاف من المواد الايدروكربونية التي عرف منها حتى الآن حوالي ٣٥٠٠٠٠ مادة . ولدى فصل هذه المواد الى مجموعات معينة تصبح ذات فائدة للانسان ، اذ تؤمن له الطاقة الحرارية الضرورية للتصنيع ، وفي الوقت نفسه تؤمن له الكثير من المنتجات الضرورية ، كالأدوية ، والألبسة والأصباغ ، والمبيدات والمنظفات ، والمواد الكيماوية وربما الغذاء في المستقبل القريب .

ولا يتم فصل هذه المجموعات عن بعضها البعض الا بالتكرير .

معمل التركيز من مرافق معمل التكرير المهمة حيث تجري معالجة النفتا وازالة غاز كبريتد الايدروجين السام منها .

منظر جوي عام لمرافق معمل التكرير في رأس تنورة .





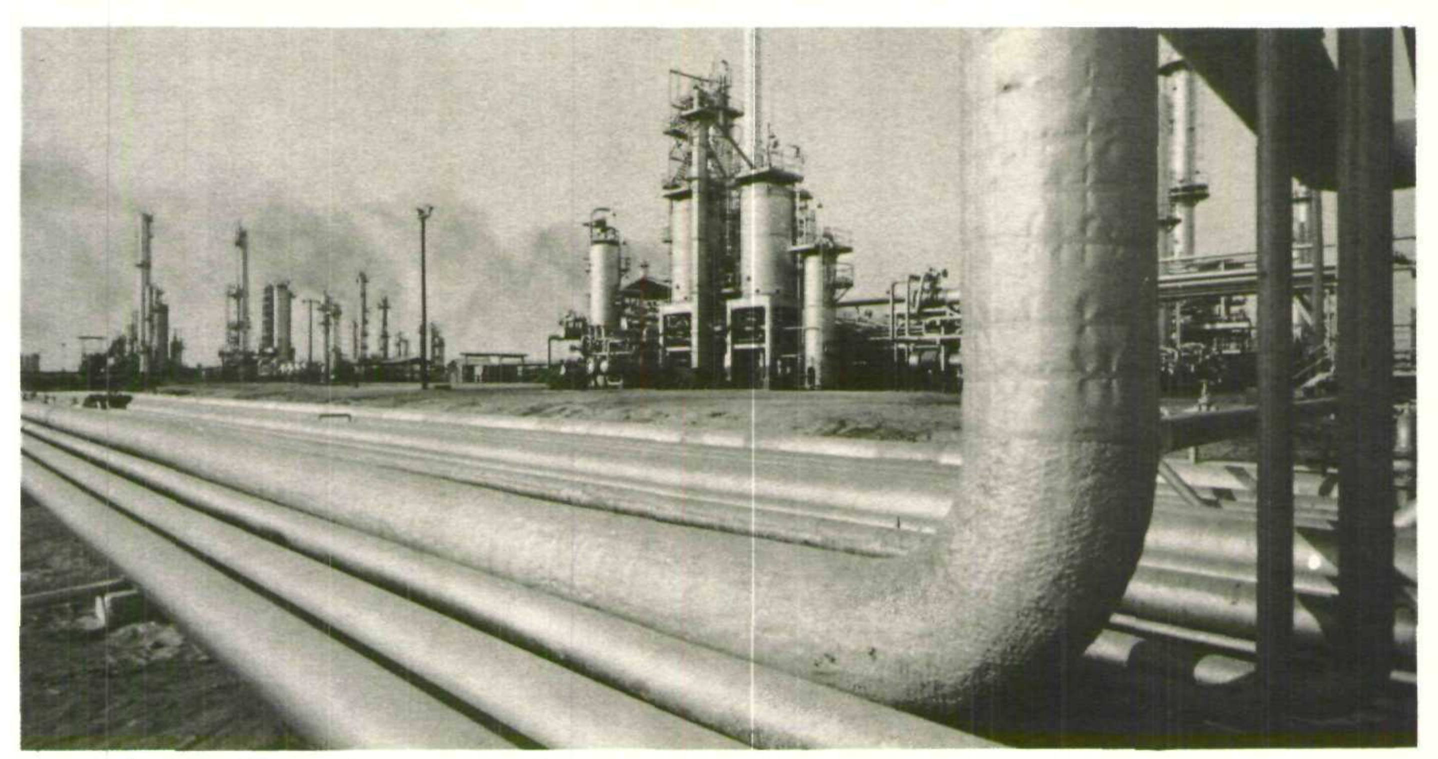
مَاهُوالتَكْرِيرُ؟

التكرير بمبدئه العام هو عملية تقطير ، أي تحويل المادة من سائل الى بخار ، ثم تبريدها واعادتها الى سائل ، وهو يستخدم مبدأ التفاوت في درجات الغليان والضغط ، كما يستخدم الوسيط الكيماوي . وبما أن الزيت الخام يتكون من مواد مختلفة الوزن والتركيب ، لذلك فانها تتبخر على درجات حرارة مختلفة ، وتتكثف على درجات حرارة متفاوتة أيضا . واذا ما استغل هذا التفاوت في درجات الغليان والتبخر ، أمكن فصل هذه المواد عن بعضها البعض والحصول على المنتجات والمشتقات المطلوبة .

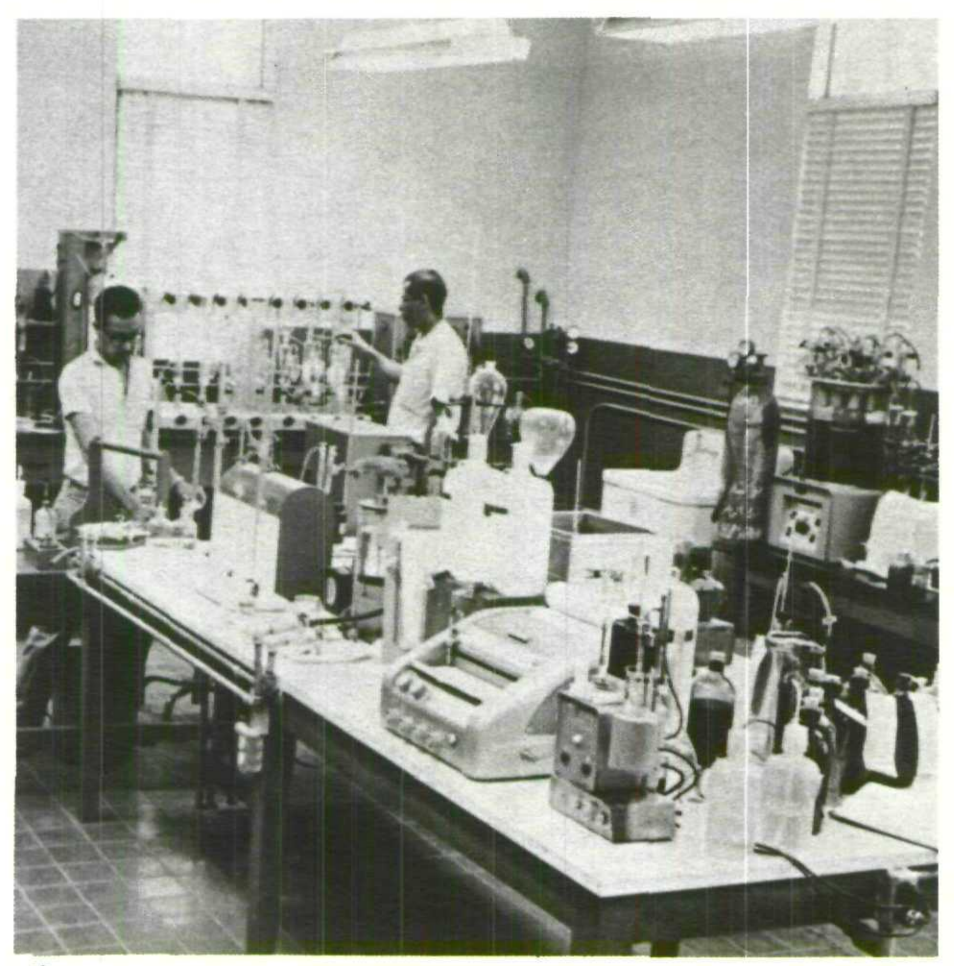
تَقْطِيرُ الزَيْتِ الخَامْ

يتعرض الزيت الخام لعدة عمليات معقدة من المعالجة قبل أن يصبح منتجات جاهزة صالحة للاستخدام . فأول هذه العمليات هي فرز الغاز من الزيت في معامل الفرز القريبة من حقول الانتاج ، ثم تركيز الزيت الخام بتخليصه من ثاني كبريتيد الايدروجين ، وبعد ذلك اجراء المرحلة الأولى من مراحل عملية التكرير وهي « تقطير الزيت الخام » .

وللالمام بهذه المرحلة وغيرها من مراحل التكرير ، دعنا نقوم بزيارة لمنشآت التكرير في رأس تنورة ، والاطلاع على مختلف العمليات هناك .



منظر جانبي لبعض مرافق معمل التكرير في رأس تنورة .



عشرات العينات من منتجات الزيت تخضع لسلسلة من الفحوص والتحاليل المختبرية يوميا للتأكد من مطابقتها للمواصفات المطلوبة .

يوجد في معمل التكرير في رأس تنورة نوعان من مرافق معالجة الزيت الخام ، أحدهما لتقطير الزيت الخام ، وهو يضم وحدتين طاقة كل منهما حوالي ٩٦٠٠٠ برميل في اليوم . والآخر لقطف الزيت الخام ، وهو يضم وحدتين تستطيعان معالجة حوالي ٢٠٠٠٠٠ برميل يوميا . وعملهما مشابه لعمل وحدتي التقطير السالفتي الذكر الا أن منتجاتهما أقل تنوعا .

وحدتا تقطير الزيت الخام

تتشابه وحدتا التقطير تشابها كليا بحيث ان الوصف الذي يقال عن احداهما ينطبق على الأخرى . فكل وحدة من هاتين الوحدتين تتكون من عمود تقطير جوي ، وعمود تقطير فراغي ، وعمود اعادة التقطير . فعمود التقطير الجوي يستقبل الزيت الخام ويفصله الى منتجات أولية هي النفتا الخالصة ، ومقطرات الكيروسين ، وزيت غاز الديزل ، والزيت الخام المختزل . وعمود التقطير الفراغي يفصل الزيت الخام المختزل الى مقطرات شمعية خفيفة ، ومقطرات شمعية ثقيلة ، ومتخلفات التقطير الفراغي . أما عمود اعادة التقطير فيتناول النفتا الخالصة ، ويفصلها الى نفتا بسيطة خفيفة غير مركزة ، ونفتا بسيطة متوسطة ، ونفتا بسيطة ثقيلة .

وقبل أن يدخل الزيت الخام احدى وحدتي التقطير يمر عبر فرن يرفع حرارته الى حوالي ٣١٥ درجة مئوية ، فتتحول بذلك حوالي نصف كميته الى بخار ، ثـم يدخل في عمود التقطير الجوي ، الذي يحتوي على ٢٩ صينية ، يدخل ما بين الصينية الخامسة والسادسة . وهناك يرتفع البخار الى أعلى عبر الصواني العليا من عمود التقطير ، بينما ينخفض السائل الى أدنى عبر الصواني الدنيا .

وخلال عملية التقطير يمرر تحت الصواني تيار من البخار للابقاء على الحرارة المرتفعة ، وجعل أكبر كمية ممكنة من الغازات تنطلق الى أعلى . وأثناء مرور المواد المتبخرة عبر طبقات الصواني تبرد تدريجيا ، فتتكثف كل مادة على درجة حرارة معينة ، فعندما تبلغ الحرارة حوالي ٢٠٥ درجات مئوية يتكثف زيت غاز الديزل ، بينما يتكثف الكيروسين على حرارة مقدارها ١٥٠ درجة مئوية ، والنفتا الخالصة على حرارة دون ٩٣ درجة مئوية

ثم يضخ الزيت الثقيل من أسفل عمود التقطير الجوي الى فرن فراغي ، حيث يسخن ثانية الى حوالي ٣١٥ درجة مئوية ، ثم يضخ الى عمود التقطير الفراغي ، حيث تفصل منه مقطرات الشمع الخفيف ، ومقطرات الشمع الثقيل ، والرواسب .

اما النفتا الخالصة فتضخ من أعلى عمود التقطير الجوي الى عمود اعادة التقطير ، حيث يجري تحويلها الى نفتا بسيطة خفيفة تخرج من أعلى العمود ونفتا متوسطة بسيطة تخرج من وسط العمود ونفتا بسيطة ثقيلة تخرج من أسفله . فقسم من هذه النفتا يتعرض لمزيد من مراحل التهذيب ليصنع منه بنزين السيارات العادي والممتاز ، وغيرهما . أما الأقسام الأخرى من النفتا فتمزج بنسب مختلفة ، وتباع حسب المواصفات المطلوبة .

وحدتا قطف الزيت الخام

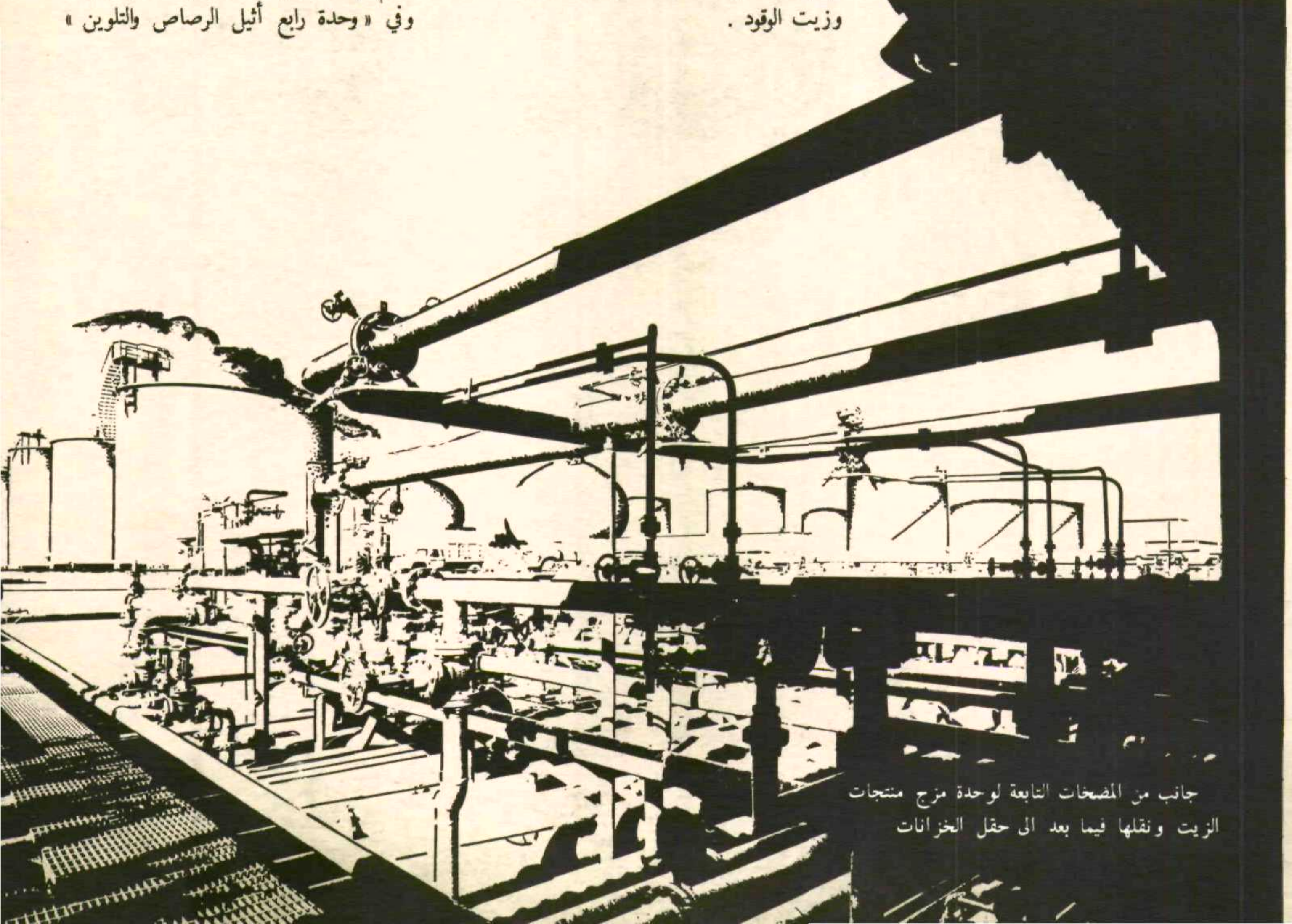
هاتان الوحدتان تعالجان حوالي ٢٠٠ ٠٠٠ برميل من الزيت الخام يوميا لتنتجا منها النفتا البسيطة الخفيفة ، والنفتا البسيطة الثقيلة ، وزيت الوقود .

وتنتج احدى هاتين الوحدتين أيضا النفتا الخالصة ، بينما تستطيع الأخرى أن تنتج الكيروسين والديزل . وتشمل احداهما (وقد بنيت حديثا) عمودا للتقطير ومرافق لتركيز النفتا .

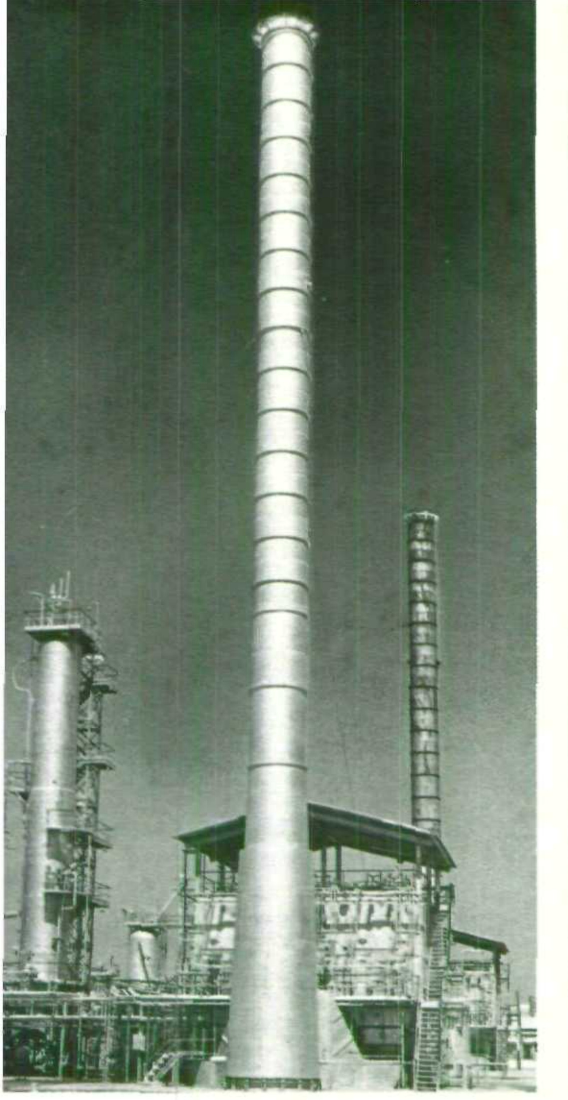
تهذيب المنتجات وتحسينها

بعد تجزئة الزيت الخام الى المركبات السالفة الذكر ، تبرد بواسطة مبدلات للحرارة ووحدات تبريد ، ثم تضخ الى ساحة الخزانات ، حيث يجري مزج معظمها ومعالجته وتسويقه على ما هو عليه ، بينما يتعرض القسم الباقي منها لمزيد من مراحل المعالجة والتهذيب ليصبح صالحا للاستخدام . ففي وحدتي التهذيب الحراري ، تعالج النفتا الثقيلة لزيادة نسبة الأوكتان فيها ، وهما تعالجان حوالي ١٣ ٠٠٠ برميل في اليوم . وفي وحدة التهذيب الايدروجيني تعالج النفتا أيضا لاعادة تكوينها بغية زيادة نسبة الأوكتان فيها ، ولكنها تختلف عن الوحدتين السابقتين بأنها تستخدم في معالجتها للنفتا الوسيط الكيماوي .

وفي « وحدة رابع أثيل الرصاص والتلوين »



جانب من المضخات التابعة لوحدة مزج منتجات الزيت ونقلها فيما بعد الى حقل الخزانات



معمل التهذيب الحراري حيث يجري تحسين مواصفات البنزين وزيادة نسبة الأوكتان فيه .



جانب من أجزاء وحدة قطف الزيت الخام .

بعض منشآت معمل معالجة البنزين والكيروسين الديزل بكبريتيد الرصاص .



تضاف الى البنزين الناتج بعد مزج مركباته مادة رابع أثيل الرصاص ، وذلك لرفع درجة الأوكتان فيه ، ثم يجري بعدئذ تلوينه للدلالة على اضافة هـذه المادة السامة اليه .

ويتم في « وحدة نزع المواد الكبريتية » تخليص زيت الديزل والكيروسين من الكبريت ، وذلك لجعل زيت الديزل أكثر صلاحية للاستعمال ، وتخليصه من هذه المادة التي تسبب تآكلا في المحركات التي تستعمله .

وفي « وحدة الألكلة » يجري استقبال البوتان ، والآيسوبوتان ، والبروبان ، والبوتيلين . فالبوتان والبروبان يضخان الى معمل غاز البترول السائل لانتاج هذا الغاز الذي يستعمل وقودا في المنازل . بينما يحول الآيسوبوتان والبوتيلين الى مفاعل ، حيث يتم انتاج الألكلات الخفيفة والثقيلة باستخدام حامض الكبريتيك كوسيط كيماوي .

وتشكل هذه الألكلات الخفيفة أكبر العناصر المستخدمة في عمليات مزج بنزين الطائرات .

وفي « وحدة الاسفلت » ، يستخلص من رواسب عمود التقطير الفراغي أنواع عديدة من الاسفلت الذي يستخدم في تعبيد الطرق وتغطية سطوح المنازل وتغليف أنابيب الزيت وغير ذلك . وتنتج هذه الوحدة حوالي ٣٠٠٠ برميل في اليوم .

وفي « وحدة ازالة سلفات الرصاص » توجد خمسة أجهزة لتحلية النفتا وازالة الروائح الكريهة منها ، وذلك بتحويل المواد الكريهة الرائحة الى مركبات عديمة الرائحة بالتفاعل الكيماوي .

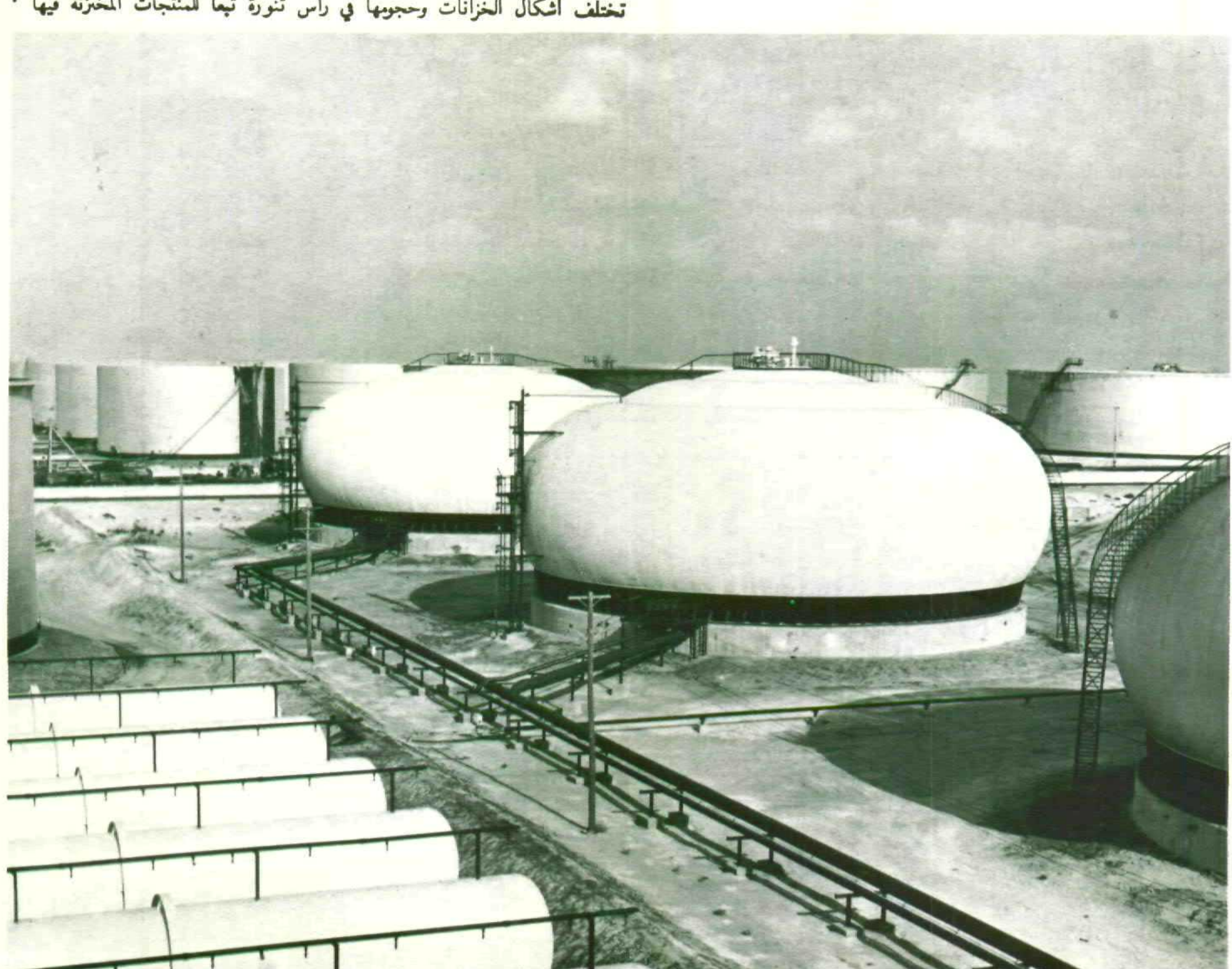
عمل دائب

الآلات دائمة الضجيج ، والمشغلون في عمل دائب ليل نهار دون توقف ، والزيت يتدفق باستمرار الى الخزانات التي لا تفتأ تفرغ وتعبأ ، وعمال الصيانة لا تغمض لهم عين عن مراقبة منشآت هذا المعمل والمحافظة على سير دولاب العمل فيه بصورة منتظمة . وبالاضافة الى ذلك تتعرض هذه المنشآت الواحدة تلو الأخرى لفحص دوري للكشف على أجزائها الداخلية والخارجية ، واصلاح المعتلة منها .

كل هذه الجهود تضافرت وتعاونت لجعل معمل التكرير في رأس تنورة يتمكن من معالجة ١٢٦ ٨٢٩ ٦٠١ برميل من الزيت الخام خلال عام ١٩٦٧ ، نتج عنها حوالي ١٢١ ٢٥٢ ٧٧٢ برميلا من ثمانية أنواع مختلفة من منتجات البترول . منها ما بلغ عدد الأصناف المنتجة منه خمسة . وقد بلغت نسبة المعد للتصدير من هذه المنتجات ٩٢ في المائة ■

ع . ع .

تختلف أشكال الخزانات وحجومها في رأس تنورة تبعا للمنتجات المختزنة فيها .



بماذا أنصح الناشئة..

بقلم الدكتور
احمد فؤاد الاهواني

وهل يحتاج ناشئة اليوم الى نصيحة ؟

نعم انهم في أمس الحاجة الى النصح والتوجيه والارشاد ، خلافا لما يزعمونه خروجا على المألوف ، واتباعا للرأي والهوى ، لأنهم – فيما يتصورون – أصدق نظرا ، وأصح فكرا ، من الشيوخ الذين يؤدون نصحهم بآراء يرون أنها أضحت بالية ، وأفكار أمست عتيقة .

وليست معركة الشباب والشيوخ جديدة ، وانما هي قديمة قدم التاريخ ، تمثل طريق الحضارة وسبيل التقدم . ويكفي أن نذكر في هذه المناسبة على سبيل المثال تمثيلية « السحب » من تأليف أرستوفانيس شاعر الملهاة الأثيني المشهور في القرن الخامس قبل الميلاد ، فانها تصور في ذلك الزمان ما يحدث الآن في القرن العشرين ، من اختلال الموازين بين جيل وجيل ، أو ثورة الجيل الحديث على القديم . وتذهب التمثيلية الى أن سقراط كان يعلّم في مدرسة ويأخذ أجرا على التعليم ، وطرق بابه شاب يريد أن يتعلم صناعة الخطابة والجدل والبيان ليثبت لمن اقترض منه الدين أنه لم يقترض .. الخ . والمغزى المقصود أن سقراط أثار الشباب على آبائهم ، وهذه احدى التهم التي من أجلها حكم عليه بالاعدام . ولكن شتان بين القرن العشرين والقرن الخامس قبل الميلاد ، فذلك القرن كانت صناعته الكلام ، وهذا بضاعته العلم والعمل .

الحق أن القرن العشرين يمثل انقلابا خطيرا في أوضاع العالم ، بسرعة سريعة ، لا يكاد المرء يلاحقها . فالانسان قد اجتاز خلال القرنين السابقين عدة ثورات أو طفرات غيّرت الأوضاع : الثورة الصناعية ، والبخارية ، والكهربائية ، والذرية ، حتى أصبحت العصور التي يعيش فيها الانسان تسمّى باسم هذه المخترعات ، كعصر البخار ، أو الكهرباء ، أو الذرة ، أو الفضاء .

أما أن ناشئة اليوم في غنى عن نصائح الكهول ، فهذا صلف وغرور ، وهما صفتان من جملة طباع الناشئة في العصر الحاضر . فالصلف أن يركب الشاب رأسه لا ينعم النظر ولا يقلب الفكر ، ويسير في طريق على هواه لا يثنيه عن عزمه شيء ، معتقدا أنه قطعاً على صواب . وأما الغرور فانه اعجاب الشاب بنفسه ، واعتقاده أنه بلغ الكمال من الأحوال الثقافية والسلوكية والاجتماعية ، وأنه في نظر نفسه دون ريب على صواب . والصلف والغرور آفتان ، اذا تمكنتا من صاحبهما تؤديان به الى التهلكة . وليعلم الناشئة أن الشيوخ أصحاب خبرة وتجارب ، قد عركتهم الحياة ، وهم الذين سايروا عصر الذرة والفضاء ، وهم أصحاب الانقلاب المعاصر في العالم ، فعلوا ذلك عن وعي وتدبير وتقدير . وجدير بهم ارشاد الناشئة للحفاظ على الحضارة الحديثة من الانهيار .

ان العالم الجديد عالم متغير ، سريع التطور ، على عكس العالم القديم الذي استمر قرونا طويلة من الزمان ، يعرف كل واحد فيه درجته بالنسبة الى غيره من الناس ، ويعرف كل ما فيه من أوضاع ثابتة ونظم لا تتبدل ، وكان يكفي أن يدرك المرء هذه النظم ، ويفطن الى مداخلها ، ليتعلم كيف يشق طريقه في ذلك العالم الثابت . ومن هنا طلع المفكرون بنصائح تلائم زمانهم ، وظلت صالحة للتطبيق خلال قرون عديدة . فهذا

أبو حامد الغزالي مثلا كتب رسالة صغيرة سماها : « أيها الولد » نصح فيها الطالب بالعمل بعد العلم ، وبالتجرد الى معرفة الله ، والقصد في كسب العلوم . وقد ظلت تعاليمها مرعية أجيالا ، ولكنها لم تعد تصلح كل الصلاح في هذا العالم المتغير المتطور .

وانطلاقا من هذا التباين الحاسم بين عالمين : عالم ثبات وعالم تغيّر ، لا بد أن تكون النصائح الموجهة للناشئة مختلفة ، وهي فيما نرى ست ، نجملها في ما يلي :

الاعتماد على النفس

كانت الناشئة في العصور القديمة تعتمد على الحسب أو الثروة أو المنزلة والسلطان ، وهذه الثلاثة سند الحياة الرغدة الهانئة . أما اليوم ، وبعد انتشار التعليم وتطلع الفرد الى الحياة الديمقراطية ، لم يعد للحسب أو المنزلة أو الثروة الموروثة سلطة كبيرة يستند اليها طالب العيش . ولم يبق أمامه سوى الاعتماد على النفس ، والنزول الى معترك الحياة ، والجد في كسب المعاش . ولما كانت الظروف متغيرة ، بل سريعة التغير ، فلا بد له أن يكون على استعداد للتكيف مع هذه الظروف . لقد ضاقت الأرض بمن عليها ، وأصبح من اللازم استغلال كل قطعة من الأرض ، وابتكار وسائل جديدة للتنمية والزراعة ، حتى لا يفضي نقص الأغذية الى كوارث ومجاعات. وخير سبيل في هذه المرحلة هو الاعتماد على النفس ، واعداد العدة لذلك ، واتخاذ الأهبة والتوسل بالأسباب الموصلة الى هذا الاعتماد . ومن جملة هذه الوسائل ما يتبع الآن في الدول الغربية من تعلم الناشئة المبادىء الأساسية العملية للعمران من نجارة وحدادة وبناء وزراعة وغير ذلك . فأنت قد لا تجد شخصا في العالم الغربي يجهل هذه الأوليات الضرورية .

التربية عن طريق النشاط

ولما كان الاعتماد على النفس لا يتحقق الا بضرب خاص من الاعداد والتعليم والتدريب ، وكان المسئول عن هذه الدربة هي المدارس ، فقد أخذت التربية منذ القرن التاسع عشر تنادي بانقلاب في التعليم ، يكون الطفل فيه مركز النشاط ، هو الذي يعمل ويتعلم ، بحيث لا يكون المعلم سوى مرشد الى الطريق . وظهرت فلسفات شتى تربوية تعتمد على طرق أساسها التلميذ نفسه ونشاطه ، بعضها يسمى طريقة المشروع ، أو « ديكرولي » ، أو التربية الحديثة ، وغير ذلك مما يرجع الى الاعتماد على النفس ، ولقد أثمرت هذه الألوان من التربية ثمرتها . ولكنها في بعض البلدان الغربية ، أضحت بسبب المغالاة في الحرية الممنوحة للطفل آفة يشكى منها ، وأصبح من الواجب تقليم أظافر هذه الحرية التي لا تعرف الحدود ، بعد أن ظهرت في الشباب ألوان من الفساد تهدد كيان المجتمع بالانهيار .

أما بالنسبة لشرقنا العربي فقد حاكينا في مدارسنا النظم التربوية الحديثة ، بيد أننا لم نطبقها التطبيق الصحيح في الأغلب الأعم ، اذ تدرّس حصص الأشغال اليدوية ، والفلاحة ، والموسيقى نظريا داخل الفصول ، والمفروض أنها دروس عملية . وعذر المدارس في ذلك أن النهضة التعليمية جاءت مفاجئة ، وهي تحتاج الى أموال طائلة لانشاء الورش والمعامل .

ونصيحتي الى الشباب أنّ ما لا يمكن تحصيله في المدرسة عليهم استدراكه بأنفسهم ، وتعويد اليد على العمل ، حتى لا ينشأ الفتى محتقرا للأعمال اليدوية ، فان سر نهضة الأمم يكمن في أمرين : السير في طريق الجد ، وانفاق الوقت في العمل .

مسايرة الميول الطبيعية

ولا خير في عمل يقسر المرء نفسه على أدائه ، ويقهرها على قبوله . ان مفتاح النبوغ ، وسر النجاح ، مراعاة الميول الطبيعية التي يتجه اليها الشخص بحسب ما يحس به . لقد سمت الحضارة العربية في القديم لاتباعها هذا المبدأ ، فكانت كل المناصب والأعمال والحرف مبجلة ، ما دامت شريفة . ولم يكن ثمة تعارض بين أن يكون العالم فقيها وفي الوقت نفسه تاجرا ، كأبي حنيفة الذي كان بزازا ، وأحمد بن حنبل الذي كان يتكسب من الغزل ومن النسخ بالأجرة .

لقد طال العهد بالشرق في عصوره المتأخرة أن يحتقر أهلُه الأعمال اليدوية ، وان يرفع من شأن العلوم النظرية . يقول القائل : لا بد أن أدرس الآداب ، أو الحقوق ، لأنه في بعض العهود كانت سوق المحامين رائجة ، يختار منهم الوزراء ورجال الحكم . وكثيرا ما كان الشباب يؤثر دراسة الحقوق بغية الوصول الى ذلك المنصب ، على الرغم من أن ميوله لا تتفق مع الدراسات النظرية . ويجري في الوقت الحاضر ما يشبه ذلك ، حين راجت صناعة الهندسة فاتجه اليها الشباب . فاذا أخفق ، وكثيرا ما يفشل ، فلأن ميوله النفسية الفطرية لا تتلاءم مع الدراسات الرياضية والآلية .

مسايرة أحوال المجتمع

ان لكل مجتمع متطلباته ، فهناك مجتمع القرية ومجتمع المدينة ، أو المجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي . وأحوال المجتمعات متغيرة ، ولكل مجتمع تقاليده وتراثه . لذلك لا يمكن ان تنطبق نصائح عامة على سائر المجتمعات . ومن طبيعة المجتمع ان يصهر الأفراد في بوتقته بتوحيد العادات والتقاليد . لذلك ينبغي على كل فرد أن يساير أحوال المجتمع الذي يعيش فيه .

التحلّي بالفضائل

الفرد عضو في جماعة ، وواحد في أمة ، وبصلاحه تصلح الأمة ، وبفساده تفسد . والصلاح والفساد مرادفان للفضيلة والرذيلة . وقد نزلت الشرائع السماوية تأمر كلها بالصلاح والسلام ، وتنهى عن الشر والعدوان .

ونصيحتي الى الناشئة الابتعاد عن الاستهتار والانحراف ، والابتعاد عن المفسدات حتى لا يعتادها الشاب ويصعب عليه بعد ذلك الاقلاع عنها ، والتحلي بالفضائل ، كالكرم ، والنجدة ، والشجاعة ، والمروءة ، والصدق ، والعفة ، والحياء ، واحترام الوالدين .

التسلّح بالعلم

ان العصر الذي نعيش فيه يعد بحق عصر العلم . ونعني بالعلم ملاحظة الظواهر الطبيعية ملاحظة دقيقة موضوعية واقعية ، ومعرفة القوانين العامة التي تخضع لها هذه الظواهر . وقد استطاع الانسان أن يكشف خصائص المادة ، ويدرك أنها مركبة من ذرات ، ثم ينتج المادة بتركيب جديد .

ولا يستطيع أي فرد في العصر الحاضر أن يعيش دون مسايرة ركب العلم ، ودون أن يتعلم كثيرا من المبادىء الرياضية والطبيعية التي تعد اليوم من قبيل الأوليات ، حتى يتمكن من استعمال الآلات والأدوات الحديثة المستخدمة في مختلف مجالات الحياة .

فالعلم زينة للمرء ، وحلية للأمة ■

امرأة هزمت كسرى

بقلم الاستاذ سلمان جابر

أخذت « كسرى برويز » عزة السلطان حين أبلغه رسوله الى النعمان ، ان « أبا قابوس » يأبى أن يرسل اليه مطلبه من الكرائم العربيات . فأرسل يستقدم النعمان اليه ، وقد أضمر له الشر ، بتحريض كاتبه زيد بن عدي ، الذي كان النعمان قد قتل – عديا – أباه .

وشعر النعمان بما يضمره له كسرى ، وبأنه صائر الى الموت اذا هو سار اليه . وأدرك انه لا يستطيع أن يمنع نفسه منه ، اذا بقي في الحيرة ، لأنه هناك في متناول يدي ذلك الباغي العنيد ، فقرر الفرار منها ، الى من يجيره من قبائل العرب . فسار أولا الى قبيلة طيء في أعالي نجد ، وهو صهر لها ، وطلب اليها أن تحميه بين جبلي اجا وسلمى ، فأجابه شيوخ طيء : « والله لا يمكننا ذلك ، ولولا صهرك لقتلناك ، فانه لا حاجة بنا الى معاداة كسرى » .

ولقي أبو قابوس من القبائل الأخرى مثلما لقي من طيء ، الا رجلا من بني شيبان قال له : « انني مانعك مما أمنع منه نفسي وولدي وأهلي ، ما بقي في عشيرتي الأدنين رجل . ولكنني لا أرى من ذلك نفعا لك لأنه مهلكي ومهلكك . ولذلك أشير عليك بأن تذهب الى كسرى مستعطفا واحمل اليه الهدايا ، فاذا صفح عنك عدت ملكا ، والا فالموت خير لك من أن يتلاعب بك صعاليك العرب » .

وكان هذا الرجل هانئا بن مسعود الشيباني ، وقد استحسن أبو قابوس رأيه ، واستودعه ما لديه ، وذهب الى كسرى ولكنه لم يعد ، فقد قتله كسرى قتلة اختلف في خبرها المؤرخون . فقال بعضهم انه أطلق عليه الفيلة فسحقته تحت أقدامها ، وقال آخرون انه سجنه في خانقين ثم في ساباط الى أن مات ، وكان ذلك قبل ظهور الاسلام بنحو ثلاثة عقود من السنين .

وأمر كسرى بعد قتل النعمان بأن تحمل اليه هند بنت النعمان ، الملقبة « بالحرقة » ، وبلغها ذلك فهامت على وجهها في البوادي تطلب النجاة . فأرسل كسرى صوائح في بلاد العرب : « ان برئت الذمة ممن يحمي « الحرقة » أو يؤويها » .

وخشيت قبائل العرب بأس كسرى ، فتخاذلت الواحدة بعد الأخرى عن حماية بنت النعمان ، مما أثار شجونها ، واستثار عزة المجد الضائع والاباء الطريد في نفسها . فأخذت ، وهي شاعرة ، ترسل أبياتها موشحة بالحزن والألم واليأس المر :

لم يبق في كل القبائل مطمع
لي في الجوار فقتل نفسي أعود
جمدت عيون الناس من عبراتها
وقلوبهم صم صلاد جلمد
لا يرحمون يتيمة محزونة
مقتولة الآباء نضوا تطرد
تبغي الجوار فلا تجار وقبل ذا
كان المنادي للجوار يسود

ولكن الفتاة البائسة ممن يجيرها ، لم تعدم هذا الجوار : فقد وجدته في امرأة مثلها ، عزيزة في قومها نافذة الكلمة بينهم ، شاعرة تثير بشعرها الهمم ، وتقدح زناد المروءات ، وتذكي ضرام العزة والكرامة في النفوس ، فتستهين بالمخاطر وتستعذب الموت في سبيل الحفاظ على شرف المجير وسلامة المستجير .

وجدت « الحرقة » هذا المجير في صفية بنت ثعلبة الشيبانية ولقبها « الحجيجة » ، فأجارتها وهي تعلم تماما خطورة ما أقدمت عليه ، وقامت الى قومها تعلمهم بما فعلت ، وتحرضهم على شحذ سيوفهم للقتال :

احيوا الجوار فقد أماتته معا
كل الأعارب يا بني شيبان
فعلى الأكاسر قد اجرت لحرة
بكهول معشرنا وبالشبان
شيبان قومي هل قبيل مثلكم
عند الكفاح وكرة الفرسان
لا والذوائب من فروع ربيعة
ما مثلهم في نائب الحدثان
اني حجيجة وائل وبوائل
ينجو الطريد بشطبة وحصان

وجرد كسرى جيشا لقتال بني شيبان ، فقاتلوه حتى هزموه ، وغنموا ماله وأثقاله . فقالت الحجيجة تصف ذلك الانتصار ومغانمه ، وتفخر بقومها وشقيقها عمرو :

يا آل شيبان بعد اليوم لا صدر
عن الكفاح وضرب متلف القمم
اني وعمروا على وعد يفيء به
من الوفاء وأسباب من الذمم
هذا مقالي وقومي قائلون معي
كما أقول لسان صادق بفم
قولوا لكسرى اجرنا جارة فتوت
في شامخ العز يا كسرى على الرغم
نحن الذين اذا قمنا لداهية
لم نبتدع عندها شيئا من الندم
نحوط جارتنا في كل نائبة
ونرفد الجار ما يرضى من النعم

وعاد كسرى يعزز جيشه ويضاعفه ، ويدفعه

الى قتال بني شيبان بقيادة منصور ، وهو أحد قواده من العرب . ويرسل منصور هذا رجلين من مقدمي جيشه الى بني شيبان يطلب منهم أن تنزل هند عند طاعته ، وهو يبرىء ذمتهم مما فعلوا ، فتلقى « الحجيجة » الرجلين ، وتخاطبهما :

قولا لمنصور لا درت خلائقه
ما صاح فيهم غراب البين أو نعقا
من زوج الفرس يا متبول قبلكم
من الأعارب يا مخذول أو سبقا
يا ويح أمك يا منصور ان لنا
خيلا كراما نصون الجار ما علقا
آلت بنو بكر ترضى ما كتبت به
يا ابن الدنية فاجمل ان أردت بقا

وحارب منصور بني شيبان ، ولكنهم كسروه ، وأمده كسرى بجند من العرب يعدون عشرين ألفا ، وعلمت الحجيجة بالأمر ، فقامت تستشير قومها :

ماذا أحاذر من عشرين بعدهم
منصور في حي غسان على نجب
وعندي الافقم الهماس من فئة
منهم ظليم وعمار بن ذي كرب

وبعد أن تعد جميع أبطال قومها زيادة في تحميسهم على القتال ، وتخص أخاها عمروا بما هو أهل له من أوصاف البطولة ، تصيح :

لا تكشفوني بهذا اليوم وارتقبوا
يومي لوقت اجتماع العجم والعرب

فهي ترى مع ذلك انه لم يحن بعد ، اليوم الذي يجب أن تظهر فيه في ميدان القتال ، وان عليها أن تدخر نفسها ليوم أعظم .. ليوم ينازل فيه قومها جيش كسرى من الفرس ، وكسرى نفسه .

ويستجيب قومها لندائها مستبسلين ، ويمشون الى القتال مستميتين ، فيهزمون منصورا ، ويضربون في أقفية جيشه ، حتى لم يبق له مطمع فيهم . فيعود الى كسرى الذي زاده ذلك حنقا ، فجهز قوى جديدة ، أراد بها سحق بني شيبان ، وتدمير ديارهم ، وسبي نسائهم ، وانتزاع تلك التي أجاروها منه ، مهما كلفه ذلك من دم ومال . وبلغ ذلك « الحجيجة » فلم يهلها ، لأنها كانت تتوقعه ، ولكنها أرادت أن تزيد في تحميس قومها لكي تستوثق من استبسالهم في القتال ، فقالت لهم : أتستقيمون وتصبرون ، أم أستجير لي ولجارتي بقبائل غيركم ، وأريكم العز الأعز ؟ :

ماذا ترون بني بكر وقد نزلت
كبرى الذوائب والأخرى على الاثر
أتصبرون لشعواء ململمة
فيها الأعاجم بالنشاب والوتر
ام لستم أهل صبر في لوازمها
عند الحفائظ والجارات والخفر
اني اجوت بكم يا قوم فاصطبروا
فالصبر يحلل فوق الأنجم الزهر

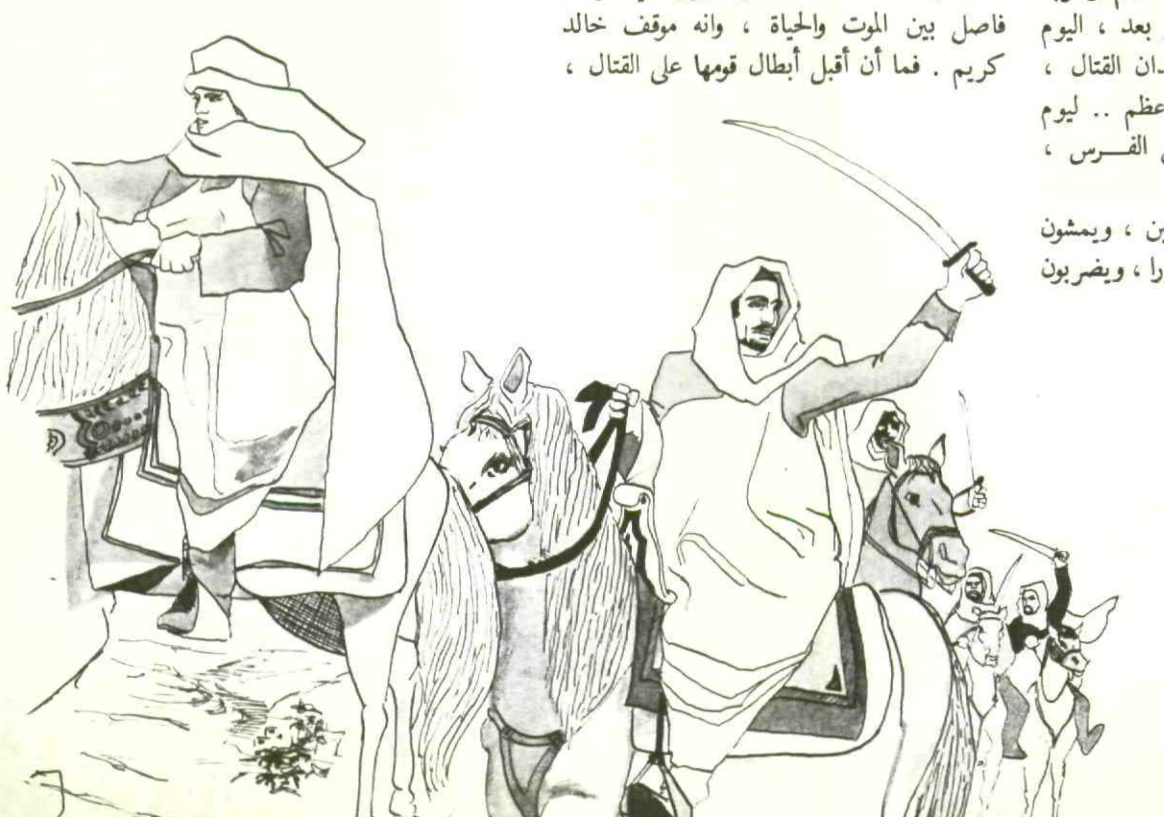
وكان بنو شيبان قد اجترأوا على كسرى ، واستلذوا طعم الانتصار ، واعتزوا بالغلبة ، ورأوا في ذلك مجال فخر لهم على القبائل الأخرى ، لأنهم أول من جابه كسرى وتحداه ، وهجم على جيشه . فاستجابوا لصرخات شاعرتهم متحمسين مصممين على النصر ، أو الموت دونه ، وشعرت « الحجيجة » بأن يومها الذي ادخرت له نفسها ، قد جاء ، وانها وقومها في موقف فاصل بين الموت والحياة ، وانه موقف خالد كريم . فما أن أقبل أبطال قومها على القتال ، حتى اقبلت هي اليهم وبرزت الى الساحة تشجعهم وتستنهضهم للقتال ، فرقة فرقة ، وفئة فئة :

ايهاً اجيدوا الضرب يا (حنيفة)
فأنتم الجمجمة الشريفة
(لجيم) قومي وبنو أبينا
ليسوا لدى الهيجا مغلبينا
الفخر فخري بسراة (عجل)
هم معشري في نجدهم والسهل
من الذي يحمي الخيام والنعم
ومن يطاعن تحت سربال القتم
ان صبرت (ذهل) فعزي اليوم تم

وهكذا حتى انتهت الى قومها الأقربين بني شيبان ، فسارت أمامهم وهم وراءها ، وهي تنشد :

ايهاً بني شيبان صفا بعد صف
من يرد العلياء لا يخشى التلف
من حاذر الموت تنحى ووقف
ان الشجاع باسل فيه الصلف

وحمل العرب على جنود كسرى ، الذين تكاثروا عليهم حتى كادوا يهزمونهم ، فأسرعت صفية تقطع حبال الهوادج ، فتساقطت النساء عن



الجمال . ورأى رجالهن ذلك ، فانعطفوا على القتال عطفة من لا يرجو الحياة . وصرخت صفية تنادي أخاها :

يا عمرو يا عمرو الفتى ابن ثعلبة
حام على جارتك المستقربة
وزاحم العجمان عند العقبة

وحمل عمرو وقومه على الفرس ، ولكن كثرة هؤلاء كادت تفني أبطال العرب ، واذا ظليم ابن الحارث اليشكري يقبل على رأس قومه ، فأيقنت صفية بالنصر ، وأنشدت :

احمل (ظليم) في العجاج الأسود
ففيه عمرو كالهزبر الأربد
أدرك فأنت غاية المستنجد
واعدُ على القوم كعدْو الأسد
بذي جنان كالصفاء الأصلد
باليشكريين كرام المحتد

فحمل اليشكريون حملة صادقة ، فرجوا بها عن بني شيبان . واستمر القتال أربعة أيام ، لم تكل فيها « الحجيجة » ولم تمل تحريض قومها على الثبات والاستبسال . وقد جاءت في اليوم الرابع « بالحرقة » وقالت لها : هذا آخر يوم بيننا وبين هؤلاء القوم ، فاسفري على عمرو (تعني أخاها) وأوصه بما شئت ، ففعلت هند ذلك ، وقالت تخاطب عمروا :

حافظ على النسب النفيس الارفع
بمدججين مع الرماح الشرع

الى أن قالت :

أظهر وفاء يا فتى وعزيمة
أتضيع مجدا كان غير مضيع

وعندما تمت الغلبة لأبطال العرب ، وكانت المرة الأولى التي تنتصر فيها العرب على العجم انتصارا حقا ، تنفست هند الصعداء ، وقد شعرت بأنها نجت ، وان قومها انتقموا من كسرى لأبيها ، وقالت :

حمتني بنو شيبان والحي تغلب
بقب المذاكي والسيوف القواضب
نجوت بعمرو من مطامع كيسر
وعدو شهاب يوم روع المقانب

وقد امتدحت هند صفية بقصيدة رائعة وصفت بها كيف اجارتها يوم تخلى عنها الجميع ، وتغنت بشجاعة بني شيبان ، ومنها :

المجد والشرف الجسيم الأرفع
لصفية في قومها يتوقع
ذات الحجاب لغير يوم كريهة
ولدى الهياج يحل عنها البرقع

طرائف

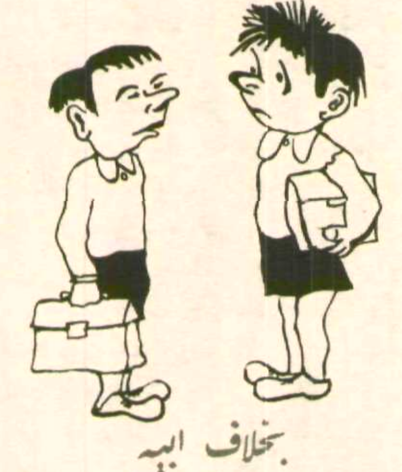
عبدالله .. لا احمد

أرسل رجل ولده الى مدرسة داخلية ، وبعد مدة تسلم الأب كتابا طويلا من مدير المدرسة يقول فيه :

– ان أحمد من أنجب الطلاب لدينا ، وهو مثال الأخلاق والاجتهاد والطاعة والتعاون ... الخ .

فأرسل الرجل رسالة جوابية الى مدير المدرسة قال فيها :

– سرني جدا ما ذكرتموه عن أحمد فيبدو أنه تلميذ ممتاز .. أرجو أن تكتبوا لي عن ابني عبد الله الذي التحق بمدرستكم مؤخرا .



بخلاف ابيه

التلميذ لزميله : ان والدي يريدني أن أحصل على كل شيء حرم منه هو في صباه .

الزميل : مثل ماذا ..؟

التلميذ : أن أحصل على علامات ممتازة في دروسي .

سعر خاص

قال موظف السنترال الى رجل طلب الاتصال هاتفيا ببلدة بعيدة : – ان هذه المكالمة ستكلفك خمسة ريالات .

فقال الرجل : – أليس هناك سعر خاص للاصغاء فقط .. انني أريد الاتصال بزوجتي .

مركز حرج

كان رجل أمي يحاول الوصول الى حل لمشكلة قد اعترضته ، فمضى الى العمدة يسأله العون في ذلك فقال له : أنت في مركز حرج الآن .

الأمي : مركز حرج ..!

العمدة : نعم .. مركز حرج .

الأمي : يا ترى ... لأية مديرية يتبع هذا المركز ؟

زهرة .. صفراء

قالت الفتاة لزميلتها في زهو وكبرياء : – ان خطيبي يقول بأن وجنتي كالزهرة المتفتحة .

فأجابت الزميلة : – بكل تأكيد .. أظنه يقصد النوع الأصفر من الزهور .

خاب ظنه

الفتى لزميله : عندما دست على قدم ذلك الرجل هل اعتذرت منه ؟

الزميل : طبعا .. ولما رآني أسرف في الاعتذار أعطاني ريالا .

الفتى : وماذا فعلت بعد ذلك ؟

الزميل : دست على قدمه الأخرى فلم يعطني شيئا .

احلام اليقظة

الأول : لقد رأت زوجتي مناما مضحكا ليلة البارحة .

الثاني : وماذا رأت ؟

الأول : حلمت بأنها زوجة مليونير !

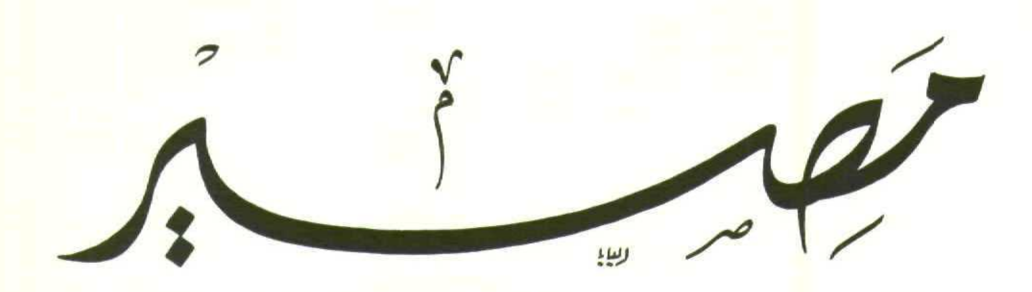
الثاني : (متنهدا) : يا لحسن حظك .. فزوجتي تحلم بذلك أثناء النهار .

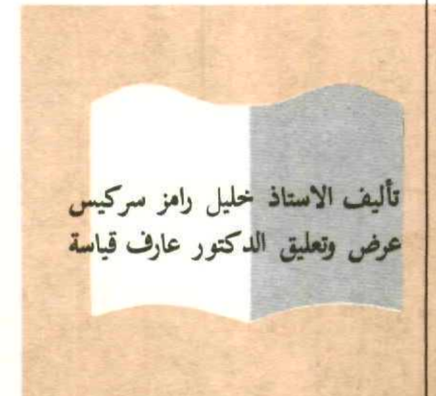


في شهر العسل

الزوج : ما الأمر يا عزيزتي .. ان المنزل مليء بالذباب .

الزوجة : لا تنس يا عزيزي أننا في شهر العسل !





الهمّ موضوع عند خليل رامز سركيس هو الانسان ، هذا الجرم الصغير الذي فيه انطوى العالم الأكبر . اليه دائما يتجه فكره ، وعليه غالبا يدور حواره . ففي (أيام السماء) وبعده في (أرضنا الجديدة) وأخيرا في كتابه (مصير) ، لم يكف المؤلف عن التصدي لمشاكل الانسان واقتراح حلول لها ، ولم يفتأ يذكره بالمخاطر التي تنتظره على دربه كي لا يتردى ، ولم يزل يوقظ طاقاته المبدعة ويحفز قواه الخيرة حتى يبلغ به الهدف الأسمى .

تلفت خليل رامز سركيس حوله ، فيا لهول ما رأى ... رأى الأرض بركانا ، والنهار ليلا ، ووجد المسرة لا ظل لها والسلام في حالة احتضار . جيل ضائع ، لا مبال ، أعمته المادة ، وغلّفت قلبه الشهوات ومزقه القلق ، لا ينهد الى الجلّى ، ولا يرتفع فوق ذاته ، يسير ولا يعرف لماذا والى أين يسير ، ويتحرك وكأنه في غمرة من حلم ثقيل . أيقف مكتوف اليدين ازاء ما يتهدد جيله من كوارث ، وهو من النخبة الواعية المسؤولة ؟ أيسكت وغد الانسانية على شفا هاوية ؟ لا .

لا بد على الأقل من بث الكلمة الهادية المضيئة . ها هو يهتف في مرارة ملء حنجرته القوية : (جيلنا اليوم أخرس غير ناطق ، لا صوت ، لا حراك ، على ما فيه من صخب وضجيج . لا شعر في عمرنا . فعمرنا كله نثر . قصائدنا أبيات . أبياتنا حطام . كلنا اليوم حطام . البندقية أردت العصفور الذي فينا . الا أنها لم تستطع أن تقضي على سجيّة التغريد ..)

ما دام فينا عرق ينبض وقلب يخفق ، فلا داعي للقنوط ولا يأس مع الحياة العارمة . فخيوط النور تغالب الغياهب ، ومجال العمل رحيب مفتوح أمام جميع الطامحين ، لا عذر اذن لمتقاعس ، ولا ذريعة لمتشائم .

« جيلنا قد انتصف ليله أو كاد . ولعله الى الشمس أدنى مما يحسبون . بين جيلنا وبيني موعد حب في عهد حياة .. »

ولا يلبث المؤلف الذي يتطلع دائما الى فوق ، أن يكشف عن سر عظمة الانسان في كل جيل من الأجيال فيقول في أسف وأسى : « بالسماء لم يحلم جيلنا بعد.. »

وما ألّف خليل رامز سركيس كتابه (مصير) الا ليدل جيله على تلك السماء الوثيقة الصلة بالأرض . « مصير » قصة انسان ممتاز ، انسان الغد المرتجى الذي يأنف أن يعيش على هامش الحياة ، ويزمع على أن يشق طريقه الى القمم بيديه القويتين اللتين لا تسأمان العمل الدائب .

انسان « مصير » لا يؤثر الدعة ، ولا يخلد الى اللامبالاة ، بل هو مغامر كبير في سبيل أهداف عليا ، فهو يأبى الا أن يصارع أمواج الحياة المتلاطمة ، ليجتث أصول القبح والشر ، وينمي معاني الحب والخير ، حتى يحقق انسانيته بكل ما فيها من طاقة وابداع .

وهو متحرر الذهن ، بعيد الطموح ، يحب الانفتاح على كل اتجاه . لأن في ذلك تجديدا لآفاقه ، واستخلاصا لطاقات الخير والجمال التي لا تنضب . وهو على سعة تجاربه الذاتية ، لا يستهين بتجارب الآخرين ، بل يجد فيها اغناء لذاته ، وانماء لكيانه ، وهو أخ كل طالب حقيقة وان لم يكن على مذهبه .

الايمان ، والمعرفة ، والحب ، هي العناصر الثلاثة التي لا غنى عنها لانسان خليل سركيس ، وهو يقوم في هذا العالم بمغامرته الكبرى الا وهي تحقيق مصيره ، مصير الانسان الخير البناء المبدع ، الذي يطمح دائما الى الأمام . وكل بناء يشاد وهو خلو من هذه العناصر الرفيعة مجتمعة ،

بناء مشوه أساسه على رمال ، ومصيره الى انهيار وزوال .

فالايمان يصل بين الانسان وبين خالقه ، فاذا « بنهاية الأرض ليست نهاية العالم ، ولا نهاية التاريخ ، بل هي مطل على مدى لعالم جديد . »

وبالايمان وحده تصبح نهاية الأزمنة ليست فناء العالم ، بل غاية الخطو نحو الاكتمال . ولكن الايمان ليس فقط صلة بين الخالق والناطق ، بل الأولى أن يقال انه (صلة ذاتية وموضوعية بين الانسان والانسان ، زيادة على كونه صلة دينية وعالمية — خاصة وعامة — بين الاله والبشر ، أفرادا وجموعا ...)

والمعرفة تنبّه الى ما لوجود الانسان من غايات سامية ، وهي تعرفه بحقوق الآخرين فيراعيها برغم ما فيها من تداخل وتشابك ، كما أنها الطريق الوحيد الى العمل الواعي المثمر .

والمعرفة بحر لجّي لا ساحل له ولا غور ، ولكن الايغال فيه يزيد من عظمة الانسان : (اني أطمح الى مزيد امعان في أبجديتي ، فأتقرى معناها قبل أن يكون وبعد أن يكون . لكم شعرت دوام المغامرة فيما لا يدرك عمقه . لكم شعرت بأن ما أروم يتأبى عليّ كلما أوغلت فيه . هنا مأساتي وعظمتي في يوم معا ، مأساة المغامرة وعظمة المصير .)

والحب هو توأم الايمان والعقل ، يزيل الفوارق بين بني البشر ، ويشد الأجنحة الضعيفة لتنطلق وتحلق في الأجواء البعيدة . وهو يقضي على أسباب الحروب ، ويطلع في حقول الحياة ازهار السلام والوئام ، وهو اذا بشّر بشّر برفق ، واذا عالج الانحراف عالجه بهوادة دون عنف . (ومهما كابدت مغامرتي من مشاق طلب المعرفة سعيا لما أعتقد أنه الحق ، فلن أتخلى عما لا يتجزأ من كياني .. شريعة الحب ..)

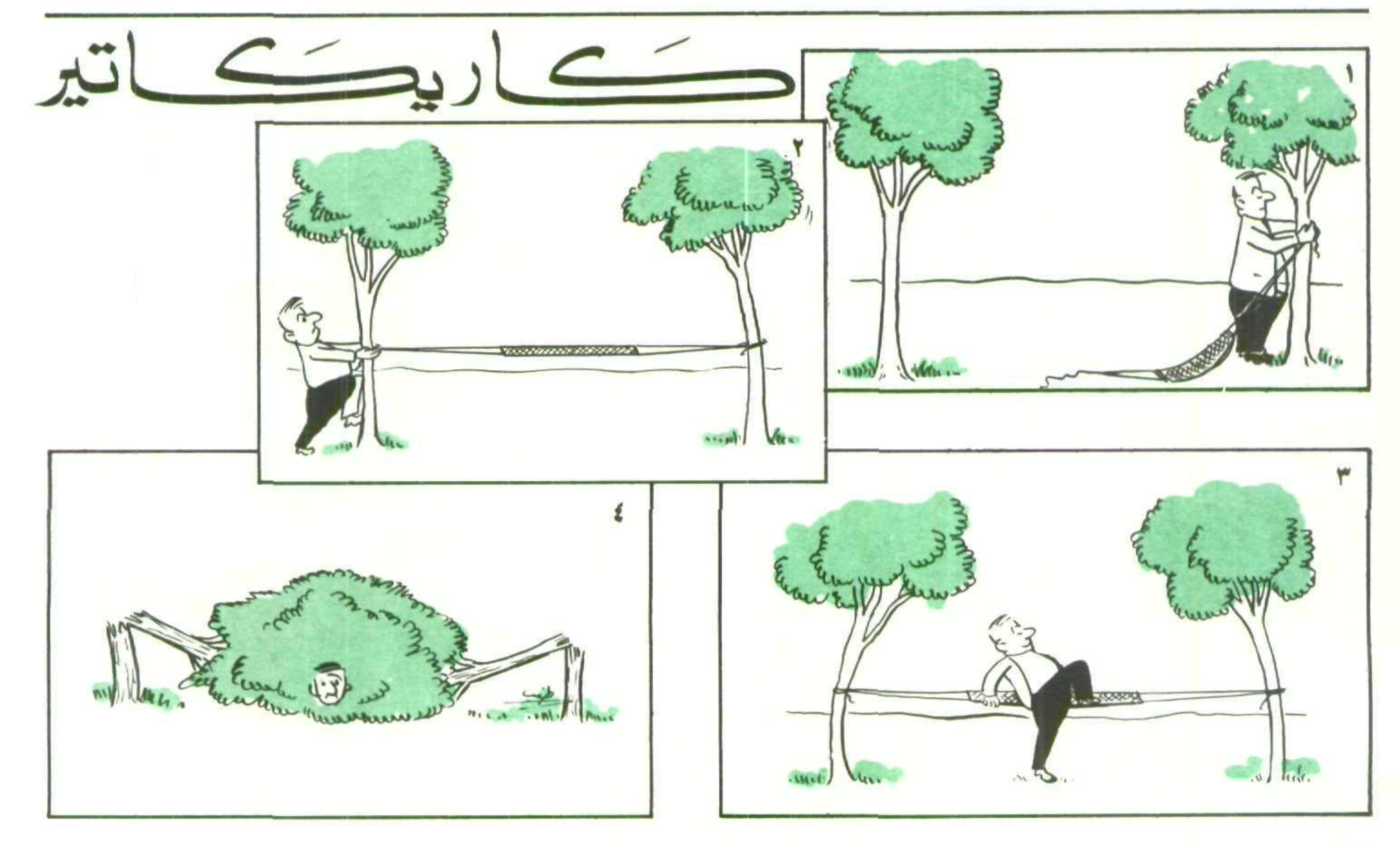
وبالاختصار ، فان انسان (مصير) انسان واقعي ، يجمع بين الروح المادة ، بين الايمان والعقل ، بين الحب والاصلاح ، وهو في كل أعماله لا يسير الا على هدى الشيم الشهمة ، وضوء الأخلاق الرفيعة « ذلك أن بالمغامر المؤمن اصالة معرفة تأبى ارتجالا ، واصالة جمال تأبى قبحا ، واصالة حق تأبى أن يحول العدل الى نظم انتقام — فضلا عن اصالة طموح يأبى الطمع ، واصالة خلق يأبى تسخير القيم لقسر واذلال .. »

وخليل رامز سركيس في كل ما يكتب ، لا يحرك قلمه ليسجل خلجة عابرة ، ولا ليؤدي فنا من فنون البراعة اللفظية ، وانما ليؤدي رسالة حيوية واعية ، آمن بها قلبه ، واقتنع بها فكره ، ليرفع من شأن الانسان ، وليعيد اليه نضارة محياه .

فقلمه نظير مبضع الجراح الماهر ، يستأصل الأورام الطارئة والخلايا الشاذة المهترئة في رفق وحب وتؤدة ، ليترك الخلايا السليمة الحية مجالا لنمو طبيعي مشبع بالعافية . ورغم أن هذا الكاتب يهمه الفكر وصدق الأداء قبل كل شيء ، فان أسلوبه المضيء نسيج وحده في الرشاقة والدقة والبيان .

لست أزعم اني وفقت الى تلخيص الكتاب في هذا العجالة ، فالبحر لا يختصر في قطرة ، والروض لا ينقل في زهرة ، ففي كل صفحة من صفحاته منطلق رحب للتأمل والتدبير والتفكير .

ولا ريب في أن القارىء سيخرج منه وهو أكثر حبا للحياة ، وأشد ايمانا بغاياتها السامية ، كما سيجد نفسه أكثر ثروة مما كانت عليه قبل قراءته ، وأعظم اقتناعا بدوره في تشييد غد بهي رائع . حسب هذا الكتاب أنه يفتح أمام الانسان آفاقا واسعة فيها جدة وفيها تنوع ، وفيها حافز للتفكير ، آفاقا ملأى بالحب والمعرفة ، والأمل والعمل ، وحسبه أيضا انه ينأى به عن الهاوية التي تفغر شدقيها في وجهه ، هاوية التمزق ، والضياع ، واللامبالاة ■











* أخرجت المطبعة العربية أخيرا عددا من كتب المصادر والمعاجم الهامة من بينها « المعجم المصنف لألفاظ الحضارة » للدكتور مجدي وهبة باللغتين الانكليزية والعربية ، وفيه نحو ستة آلاف لفظة من الألفاظ الحضارية المتداولة في الحياة المعاصرة ، و«القاموس السياسي» للأستاذ أحمد عطية الله وتناول فيه نحو أربعة آلاف مادة تتصل بالدول وجغرافيتها واقتصادها والهيئات الدولية والموارد الطبيعية وما اليها . كذلك صدر الجزء الأول من « صحيح البخاري المفسر » وفيه معجم مفهرس لألفاظه وقد وضعه الدكتور مصطفى كمال وصفي . كما أصدر الدكتور صلاح الدين المنجد جزءين من « معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتي ١٩٦١ و ١٩٦٥ » ، وقد حصر فيهما ما صدر من كتب التراث المحققة في تلك الفترة . وفي الوقت عينه أصدرت الأديبة سهى تميم قائمة ببليوغرافية شاملة لجميع المؤلفات والدراسات التي وضعها أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت في جميع فروع المعرفة باللغتين الانكليزية والعربية في مئة سنة كاملة ، وتقع هذه القائمة في ٤٠٠ صفحة . وأصدر الأستاذ عمر رضا كحالة طبعة ثانية من « معجم قبائل العرب » تقع في ثلاثة أجزاء كبار .

* أعد العلامة الكبير الأستاذ خير الدين الزركلي للنشر سفرا عنوانه « الاعلام بما ليس في الأعلام » فيه استدراك بالزيادة والتنقيح للمادة العلمية التي اشتملت عليها موسوعته الفريدة « الأعلام » بأجزائها العشرة .

* جهز الأستاذ يوسف أسعد داغر للنشر جزءا ثالثا من كتابه « مصادر الدراسة الأدبية » فيه ترجمات وقوائم ببليوغرافية مفصلة لنحو ٤٣٥ من أعلام الفكر العربي الذين توفوا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٦٧ .

* اشترك الدكتوران فؤاد صروف وأنيس فريحة في ترجمة فصول كتاب نفيس عنوانه « الجامعة وانسان الغد » اشتمل على ثماني محاضرات ألقاها أئمة المشتغلين بالتعليم الجامعي في العالم في موضوع الجامعات ومهمتها في المستقبل .

* صدرت مجموعة من كتب التراث المحققة منها « تلخيص الخطابة » لأبي الوليد بن رشد وقد حققه وشرحه الدكتور محمد سليم سالم ، و « موطأ الامام مالك » عن رواية محمد بن الحسن الشيباني ، وقد حققه وعلق عليه الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف ، و « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي وقد حققه المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال ، و « تاريخ الموصل » للشيخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الأزدي وقد حققه الدكتور علي حبيبة والجزء الثالث من « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي وقد حققه الأستاذ محمد علي النجار . وقد قدم لهذه الكتب جميعا العلامة الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم .

* صدرت للمرحوم الأمير شكيب أرسلان طبعة ثانية من كتابه « محاسن المساعي في مناقب الامام أبي عمرو الأوزاعي » بمقدمة للشاعر القروي رشيد سليم الخوري .

* وفي باب التراجم والسير ، صدر كتاب « أبطال الفتوح العربية » للأستاذ السيد فرج راويا فيه سير خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، والزبير ابن العوام ، وموسى بن نصير ، وأبي عبيدة ابن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وصلاح الدين الأيوبي ، وأسامة بن منقذ . كما صدرت طبعة ثانية تقع في أكثر من ٨٠٠ صفحة من كتاب « جبران حيا وميتا » للأديب المهجري حبيب مسعود .

* أصدر الأستاذ محمد نصر كتاب بعنوان « صفحات من حياتهم » ترجم فيه لستة وعشرين من الأدباء المعاصرين وأصدرت الأديبة نبيلة الرزاز اللجمي دراسة جديدة عن « بدر شاكر السياب — حياته وشعره » .

* في الدراسات الأدبية ظهرت الكتب التالية : الجزء الأول من « النقد الأدبي الحديث في لبنان » للدكتور هاشم ياغي وفيه دراسة للحركة النقدية في لبنان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وطبعة ثالثة منقحة من دراسة رسالة « الغفران » للمعري بقلم الدكتورة بنت الشاطىء ، و « مع ايليا أبي ماضي في طلاسمه » للأستاذ أحمد الشيخ عبد الحميد السماوي ، و « اللغة العربية عبر القرون » للدكتور محمود حجازي ، و « ساعات بلا عقارب » وهو دراسات في الكتب للأستاذ أنيس منصور ، و « مجموعة الحروف العربية وظروفها » للأستاذ جرجي سليم أبي أسبر وهو أشبه بمعجم مبسط .

* ظهر للأديب السعودي الأستاذ عبد الكريم الجهيمان كتاب جديد بعنوان « من أساطيرنا الشعبية في قلب الجزيرة العربية » .

* أصدر الأستاذ عبد الرحمن التكريتي كتابا في جزءين عن « الأمثال البغدادية » .

* في الشعر قديمه وحديثه ظهرت هذه الطائفة من الدواوين : الطبعة الثالثة من ديوان « وحي الفؤاد » للشاعر السعودي فؤاد شاكر ، و « ألحان مصرية » للأستاذ صالح جودت ، و « مطل الضياء » للأستاذ جورج داوود ، و « نداء القمم » للدكتور يوسف خليف ، و « دموع المهرج » للمرحوم الأستاذ المأمون أبو شوشة ، وديوان من الشعر الشعبي هو « ناي وشموع » للأستاذ محسن الخياط .

كما ظهرت للأستاذ سليمان العيسى مسرحية شعرية عنوانها « انسان » .

* أصدر الأستاذ يوسف جوهر رواية طويلة ممتعة هي « جراح عميقة » . كما ظهرت روايات أخرى منها « الفلاح » للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ، و « البلد » للأستاذ عباس أحمد ، و « الخطايا السبع » لأوسكار وايلد وترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين ، وكان الأستاذ علي أدهم قد ترجم هذه الرواية ترجمة مشرقة من عشرين عاما ، و « نسور بيضاء » للورنس داريل وترجمة الأستاذ محمد حازم سليم . وظهرت ترجمة لمسرحية « عربة الصلصال الصغيرة » المنسوبة الى الملك سودراكا وهي من ترجمة الأستاذ فاروق عبد المعطي .

* من الدراسات الفلسفية الجديدة التي ظهرت « قصة الفلسفة » للدكتور مراد وهبة ، و « الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر » لجان فال ، وترجمة الأستاذ فؤاد كامل ، و « الجزء الثاني من « حكمة الصين » للأستاذ فؤاد محمد شبل .

* أصدر الشيخ محمد بهجة البيطار كتاب «الرحلة الحجازية» ساردا ذكريات رحلة قديمة زار فيها ديار جزيرة العرب .

* فرغ الأستاذان يوسف أسعد داغر وفريد داغر من ترجمة الجزء الخامس من كتاب « تاريخ الحضارات العام » وهو لبعض المؤلفين الافرنسيين .

* في القانون والاقتصاد صدرت الكتب التالية : الجزء التاسع من « الوسيط في القانون المدني » للدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري ، وطبعة ثانية منقحة من « اقتصاديات العالم العربي » للدكتور راشد البراوي ، و « التنمية الاقتصادية — أصولها وقواعدها » للأستاذ فؤاد محمد شبل ، و « في الروابط بين القانون والدولة والفرد » للدكتور نعيم عطية ، و « مبادىء الرياضة المالية » للدكتور سمير بباوي فهمي والأساتذة أنيس فرنسيس وحسن فتح الله وزكي محمد عبد الرحمن.

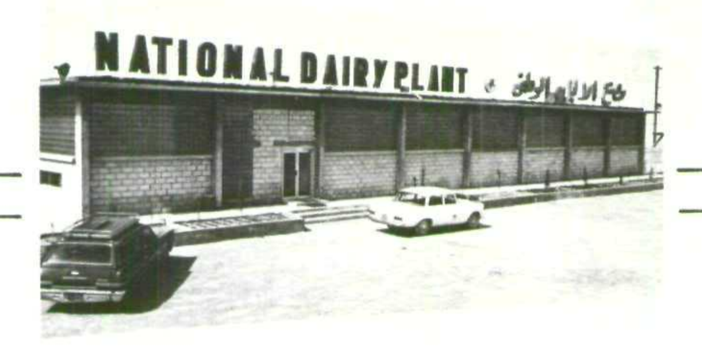
* اشترك الدكتوران ممدوح الوكيل وأحمد فتحي الزيات في اخراج كتاب عن « النوم والرؤيا والأرق بين الدين والعلم » .

* صدر مؤخرا كتاب علمي بعنوان « عالم الألكترون » للأساتذة جواد مصطفى جواد ، وعبد الحميد صادق المنشيء ، وناجي مزهر عبد الرحمن .

* صدر للدكتور عبد اللطيف حمزة كتاب جديد عن الصحافة عنوانه « قصة الصحافة العربية في مصر » .

* « طفلك وفنه » كتاب لفكتور لوينفلد ترجمه الى العربية الأستاذ سامي علي الجمال وراجعه الدكتور يوسف صلاح الدين قطب .

مؤسسة لا غنى لنا عن انتاجها .. ويتوقع لها النجاح ما دامت ركائز عملها الثلاث، هي : النظافة،والتقنية ، وتنوع الانتاج .





ترص علب المنتجات «المبسترة» في أوعية سلكية ، ثم تنقل توا الى مستودع التبريد .

《 مصنع الألبان الوطني كما يبدو من الواجهة الأمامية .



نماذج من العلب التي تسوق بها المنتجات . 》

الحليب : غذاء كامل

يعتبر الحليب غذاء كاملا ، نظرا لما يحتويه من متطلبات الجسم ، كالبروتين ، والكالسيوم ، والدهنيات السهلة الهضم ، والحديد ، والفيتامين ، الا أنه في الوقت نفسه يعد من أخطر الأطعمة وأكثرها نقلا للأمراض . فهو وسيط جيد لتكاثر معظم أنواع جراثيم الأمراض المعدية ، كالسل والديزنطاريا ، والتيفوئيد ، والبراتيفوئيد ، والدفتيريا . وعدم العناية بـه قد يعرض متناوله لأخطار الأمراض والتسمم . على أن خطورة ما يسببه الحليب الملوث من أمراض يدفعنا الى العمل على ابقائه سليما ، وما فيه من فوائد تدعونا الى تناوله باستمرار ، وخاصة بالنسبة الى الأطفال .

ان أسهل وسيلة معروفة للتأكد من سلامة الحليب هي تسخينه الى درجة الغليان التي تقضي على جميع أنواع الجراثيم التي يحويها ، وهذه طريقة شائعة تمارسها معظم ربات البيوت . غير أن غليان الحليب يكسبه طعم الطبخ الذي قد يجعل الأطفال يمجونه ويعرضون عن تناوله ، وفي الوقت نفسه يفقد الحليب بعضا من قيمته الغذائية . لهذا أخذ العلماء يفكرون في ايجاد وسيلة تحفظ للحليب سلامته وطعمه الطبيعي وقيمته الغذائية ، فتوصل العالم الفرنسي « لويس باستير » في الستينات من القرن التاسع عشر الى طريقة مثلى عرفت باسم « البسترة » ، نسبة اليه . وتتلخص هذه الطريقة في تسخين الحليب الى حرارة مقدارها ٦٢ درجة مئوية وابقائه على هذه الدرجة مدة ثلاثين دقيقة ثم تبريده ، أو تسخين الحليب الى حرارة مقدارها ٧٢ درجة مئوية وابقائه على هذه الدرجة مدة خمس عشرة ثانية ثم تبريده . وفي كلا الحالتين يتم القضاء على جميع أنواع الجراثيم .

بيد أن بسترة الحليب لا تعطي الفائدة المرجوة ما لم تكن الأوعية التي يحفظ الحليب فيها ، حتى ساعة تناوله ، نظيفة معقمة ، وما لم يحفظ الحليب نفسه في جميع مراحل تداوله على درجة من البرودة تحول دون تكاثر البكتيريا . وهكذا أصبح من ضروريات المعامل التي تتعامل بالحليب ومشتقاته أن تكون على جانب كبير من النظافة ، وان تستخدم المعدات والآنية والأوعية السهلة التنظيف ، وأن يكون لديها غرف تبريد يحفظ فيها الحليب على درجة حرارة منخفضة حتى ساعة تناوله .

ويعتبر مصنع الألبان الوطني الحديث الذي نحن بصدده ، أنموذجا حيا لهذا النوع من المعامل

مصنع الألبان الوطني

يمتلك مصنع الألبان الوطني الأخوان عبد الله وابراهيم المطرود . وقد بوشر في انشائه منذ سنتين تقريبا برأسمال يناهز ثلاثة ملايين ريال سعودي . وهو يقع جنوبي الخبر . وقد استوردت معظم أجزائه من معدات وآلات من الولايات المتحدة الأمريكية . أما بالنسبة للحليب المجفف والمواد الأولية الأخرى فيجري استيرادها بصورة منتظمة من استراليا ، نظرا لجودة نوعيتها ومطابقتها للمواصفات الصحية العالمية .

ويتكون مبنى المصنع من غرفة للتحضير والتعبئة ، وأخرى لحفظ المنتجات ، وثالثة لحفظ البوظة ، ورابعة لتخمير الألبان ، ومستودع للمواد الخام ، ومختبر . وقد روعي في تصميمه الشروط الصحية العالمية من حيث الموقع والانارة والتهوئة . وقد بدأ المصنع بالانتاج في شهر أكتوبر سنة ١٩٦٧ .

انتاج المصنع وطاقته

تُستهل مراحل الانتاج في المصنع بمزج الحليب المجفف بالماء واعادته الى حالة السيولة الطبيعية . وبعدئذ « يبستر » الحليب ويعلب قسم منه للاستهلاك المباشر بينما يحال القسم الآخر الى منتجات معينة كحليب الشوكولاته ، واللبن المخيض ، واللبن الرائب ، واللبنة ، والبوظة على اختلاف أنواعها ، وبالتالي يعلب . ويبلغ معدل انتاج المصنع اليومي حوالي ٢٠٠٠ ليتر من الحليب العادي ، و ٥٠ ليترا من حليب الشوكولاتة ، و ٢٢٥ ليترا من اللبن الرائب ، و ١٥٠٠ ليتر من اللبن المخيض ، وحوالي ٥٠ كيلوغراما من اللبنة ، ونحو ٥٠٠ ليتر من البوظة . على أن طاقة المصنع القصوى تبلغ أضعاف أرقام الانتاج الحالية

اذ يستطيع أن ينتج يوميا ما يقارب ٢٨٠٠٠ ليتر من الحليب بأنواعه ، و ٢٠٠٠ ليتر من اللبن الرائب ، و ٦٠٠٠ ليتر من البوظة بأنواعها ، و ٢٠٠٠ كيلوغرام من اللبنة .

غرفة التحضير والتعبئة

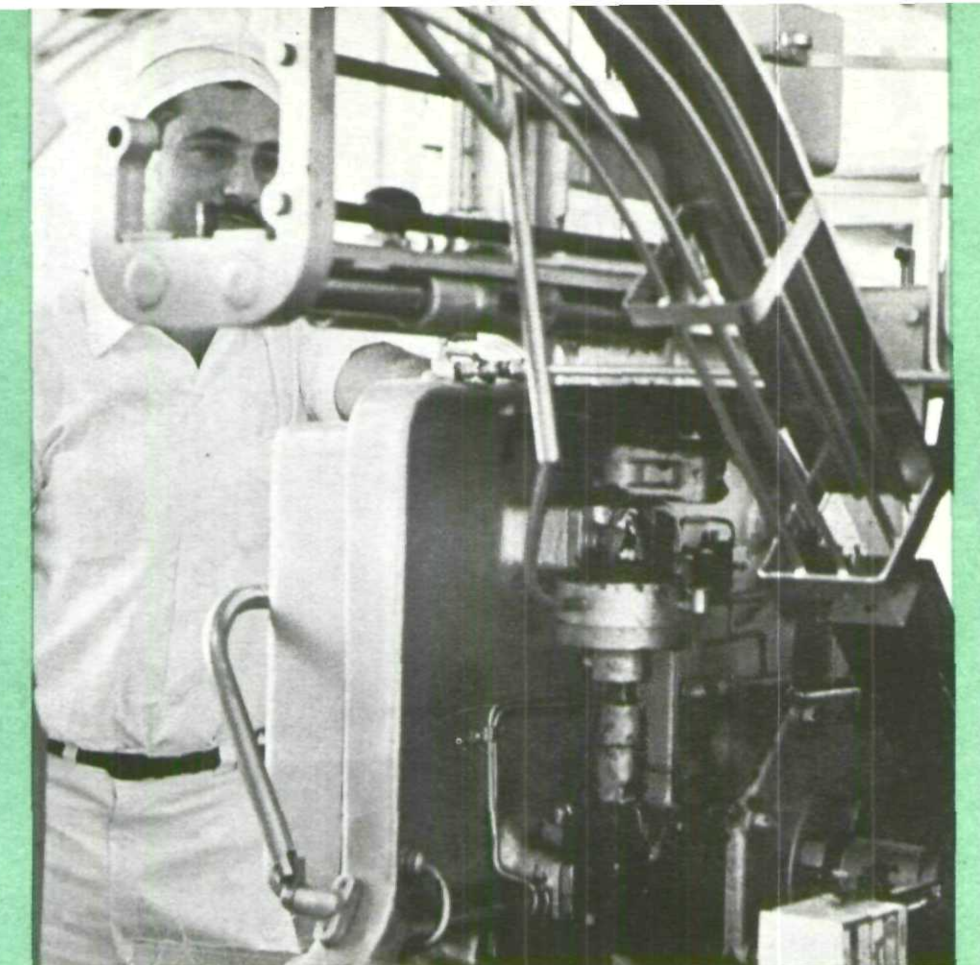
وهي قاعة رحبة مكيفة بالهواء ، بلطت أرضها وجدرانها ببلاط سهل التنظيف ، أما الآنية والخزانات التي تستخدم لحفظ الحليب فمصنوعة من حديد لا يصدأ ، وهي مصممة بحيث يسهل غسلها جيدا . وجميعها يتصل بعضها ببعض بأنابيب فولاذية ذات مواصفات مماثلة . وتدفع المنتجات من الخزانات الى آلات التعبئة مضخات صغيرة . وجميع الخزانات مزودة بأجهزة للتسخين والتبريد بالاضافة الى موازين لضبط درجات الحرارة .

تحضير الحليب

يمزج الحليب المجفف بالكميات الضرورية من الماء في قمع كبير خاص ، ثم يضخ المزيج الى أحد خزاني « البسترة » حيث يتعرض لطريقة البسترة السريعة ، أي تسخين الحليب الى ٧٢ درجة مئوية وابقائه عليها مدة ١٥ ثانية . وبعدئذ يضخ الى آلة خاصة تقوم بخلطه جيدا للحيلولة دون طفو الزبدة على سطحه ، ثم الى آلة للتبريد حيث تنخفض حرارته الى ما دون ١٠ درجات مئوية . ومن هنالك يضخ الى أحد خزانات الحفظ الثلاثة ، حيث يبقى على درجة حرارة منخفضة ريثما تتم تعبئته آليا في علب من الكرتون تتراوح أحجامها بين ربع ليتر وليتر ، وبالتالي تنقل هذه العلب الى مستودع التبريد لحفظها تمهيدا لنقلها الى مخازن البيع .

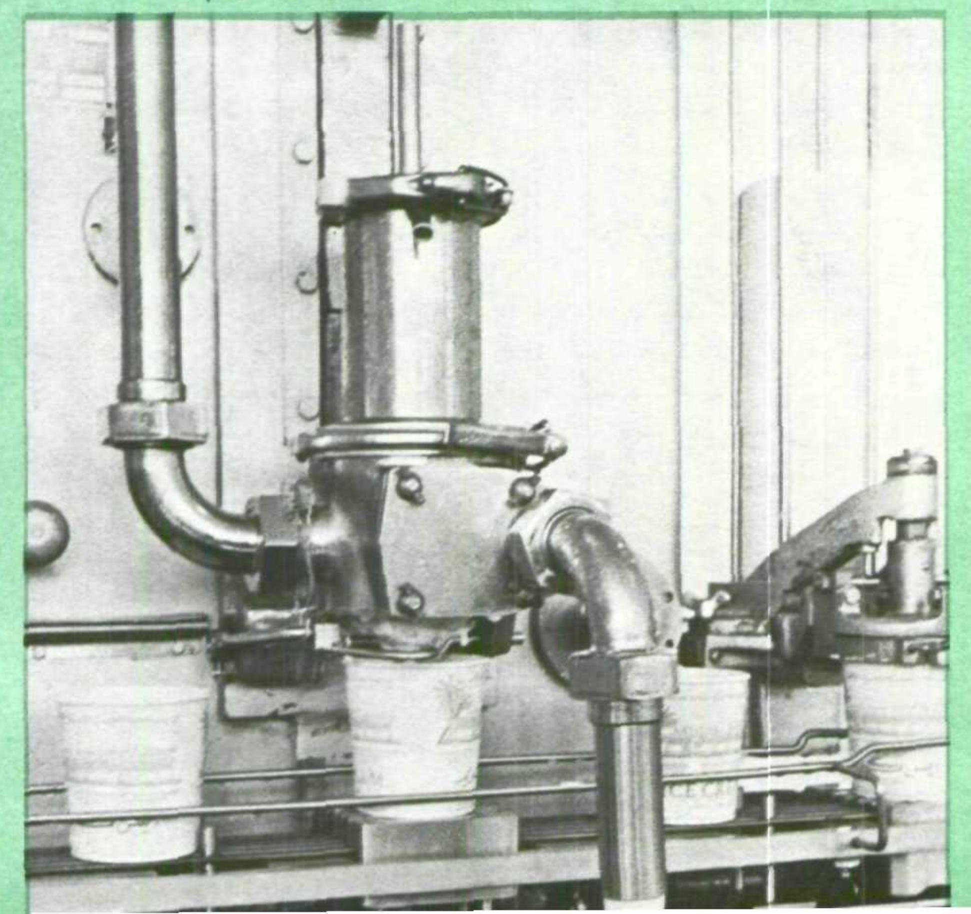
تحضير المنتجات الأخرى

من الحليب «المبستر» تحضر المنتجات الأخرى. فحليب الشوكولاتة مثلا يحضر باضافة كمية معينة من الكاكاو الى كمية معينة من الحليب ، وخلطها جيدا ثم تعليبها ونقلها الى مستودعات التبريد . والبوظة بأنواعها تحضر بمزج الحليب «المبستر» ثم اضافةمسحوق البوظة الخاص والنكهة المرادةاليه، وضخه الى آلة خاصة تقوم بتجميده جزئيا ، وتعليبه في علب جاهزه تحفظ في صناديق من



فني يرقب سير الأعمال في آلة تعليب الألبان .

تعلب البوظة بطريقة آلية تضمن نظافة المنتجات وخلوها من الجراثيم .





تحفظ المنتجات في مستودعات التبريد على درجة حرارة منخفضة حتّى ساعة خروجها الى الأسواق .

الكرتون ، تنقل بعد ذلك الى مستودع التبريد .

أما اللبن الرائب فيجري استحضاره بتسخين الحليب الى ٩٥ درجة مئوية، ثم تخفيض حرارته الى نحو ٤٥ درجة مئوية ، حيث يضاف قليل من بكتيريا التخمير اليه ، وبعد ذلك يحرك جيدا ، ثم يعبأ في علب ، ويوضع مدة ساعتين ونصف الساعة في غرفة التخمير على حرارة مناسبة تسمح بتكاثر بكتيريا التخمير . ومن ثم ينقل اللبن الى مستودع التبريد في انتظار شحنه الى الأسواق . وعملية استحضار اللبن المخيض مماثلة تقريبا لعملية استحضار اللبن الرائب باستثناء تفاوت بسيط في درجة الحرارة المستخدمة في ترويبه ، وفي مدة التخمير التي تقارب ثماني ساعات . أما عملية استحضار اللبنة فتتم بالطريقة المعروفة ، وهي وضع اللبن الرائب في أكياس نظيفة من القماش ، ريثما يتخلص من معظم الماء الذي فيه ، ويصبح على شكل معجون ، ثم يتم تعليبه ونقله الى مستودعات التبريد .

مستودعا التبريد والتجميد

وهما يتسعان لكميات كبيرة من الانتاج ، ومزودان بميزاني حرارة مثبتين في أعلى مدخل كل منهما بحيث يستطيع العامل المسؤول مراقبتهما وتعديل درجات الحرارة وفق ضرورة مراحل التصنيع دون الاضطرار الى الدخول اليهما . وهكذا تبقى حرارة مستودع التبريد على حوالي ٤ درجات مئوية . وحرارة مستودع التجميد على حوالي ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر . والجدير بالذكر أن العمال يرتدون أثناء عملهم داخل مستودعي التبريد والتجميد ثيابا واقية خاصة تحول دون تعرضهم للبرد الشديد .

الموظفون

يعمل في مصنع الألبان والبوظة الوطني في الخبر حوالي ٤٠ موظفا بين فني ومشغل وعامل وسائق ، معظمهم من العرب السعوديين الذين لهم خبرة سابقة في هذا المضمار . ويتوقع أن يزداد عددهم فيما بعد الى حوالي ٢٠٠ موظف وذلك لدى مباشرة المصنع في عمليات البيع بالمفرق في الأسواق والأماكن العامة . والمعروف أن موظفي المصنع كافة يخضعون لفحص طبي بين فترة وأخرى للتأكد من سلامتهم وخلوهم من الأمراض . ويشترط على كل منهم الاستحمام وارتداء ملابس نظيفة موحدة ، يؤمنها المصنع ، قبل دخولهم اليه في كل يوم عمل . ويحظر عليهم التدخين أو تناول الطعام داخله .

جلسة ومحادثة

بعد تجوالنا في مختلف أقسام المصنع ، التقينا بالسيد عبد الله المطرود في مكتبه ، فأجرينا معه الحديث التالي :

* **أين تبيعون منتجاتكم ؟**

— في سائر مدن وقرى المنطقة الشرقية بما في ذلك

مخازن البيع التابعة لاحياء سكن موظفي أرامكو الواقعة فـي الظهران ، وبقيق ، ورأس تنورة .

* **كيف توزعون هذه المنتجات ؟**

— لدينا فروع للبيع في كل من الدمام والخبر ورحيمة ورضوى والهفوف مجهزة بثلاجات ، وتقوم بتوزيع المنتجات اليها أربع سيارات خاصة مزودة بأجهزة للتبريد تحفظ المنتجات من التلف .

* **هل تبشر مبيعاتكم بنجاح المشروع ؟**

— ان الفترة التي عمل المصنع خلالها حتى الآن ، تعتبر فترة تجريبية ، ولكننا والحمد لله مرتاحون جدا لما تلاقيه منتجاتنا من رواج في الأسواق .

* **هل تنوون توزيع منتجاتكم خارج المنطقة الشرقية ؟**

— أجل ، ولكن بعد التأكد من نجاح المشروع في المنطقة الشرقية أولا . وعندئذ قد نحتاج الى اجراء بعض التوسعات على المعمل .

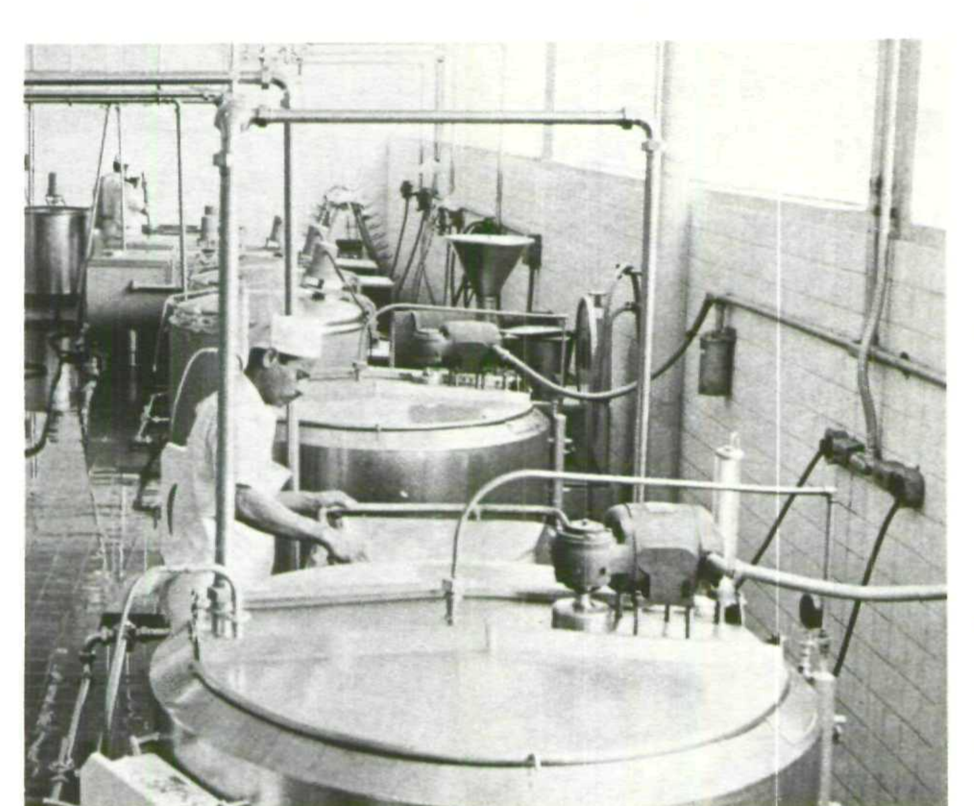
* **ما هي المشاريع التي تنوون انجازها فـي القريب العاجل ؟**

— جلب المزيد من سيارات التوزيع ، والعربات المتنقلة لبيع المنتجات بالمفرق في الأسواق والمدارس والمؤسسات العامة .

* **وما هي المشاريع التي تنوون تنفيذهـا في المستقبل ؟**

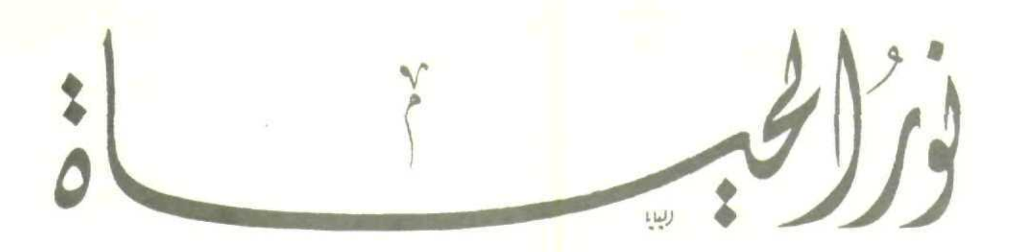
— انشاء مزارع للأبقار وتربيتها ، كي يصبح الانتاج محليا مائة في المائة ■

ع.ع.



جانب من غرفة تحضير الألبان ، حيث يبدو الاهتمام بالنظافة واضحا .

وتنقل المنتجات الى الأسواق في سيارات خاصة مزودة بأجهزة للتبريد .



للشاعر محمد ابراهيم جدع

كم أنت يا نور الحياة أتيت في أبهى الحلل
ورعيت قلبا في الكفاح وفي النضال وفي العمل
ورفعت نشأ بالعلوم ولم ترفع من جهل
مدّوا الى الآفاق أسباب التقدم فاتصل
وبراعم أنشأن أفكارا وأعطين المثل
قد أينعت أزهارها وتفتح الورد المطل
أدوا دراستهم باخلاص وعزم مكتمل
فتحققت آمالهم ورنت لبهجتها المقل
اني أحيي عزمهم وأشيد بالباني الأجل

• • • • •

كم أنت يا نور الحياة منحتنا حب الكفاح
ونضالنا في العمر نسعى للفضيلة والنجاح
وجهادنا للعز والاقدام في درب الفلاح
ولأنت رائدنا ورائد فتية راموا الصلاح
حفزتنا للمجد نعمل في غدو أو رواح
فتحققت أهدافنا ورنا لموكبها الصباح
ضحكت لنا الأيام في جذل وعشنا في ارتياح
في فرحة بفلاحنا زال العناء بها وراح
إنّا بظلك نرتقي أملا وإن كلّ الجناح
وتفيض أنفسنا رجاء بالمودة والسماح



عصا المجنون

بقلم الاستاذ

عبدالله عبدالرحمن جفري

تعود الناس أن يروه في كل يوم .. يتسكع بين متاجر « سويقه » ، ويقف عنـد أصحابها دقائق ، يمازحهم ، ويضحك بأسلوب ملفت للنظر والسمع ، ويبدي ألوانا من الحركات المغرقة في الضحك . وتحت ابطه يحمل عصا غليظة ، يرفعها على كل من يتعرض لأذاه ، وعلى رأسه يضع « طاقية » تتخذ شكل القبة فيبدو وكأنه « بلياتشو » ، ويحلو للناس أن يداعبوه وينتزعوا منه غطاء رأسه أو عصاه العزيزة عليه ، فيعدو خلفهم ، ويثير جلبة من الضحك بين الباعة والمشترين . ولكنه لم يقدم يوما على ضرب انسان بتلك العصا الثقيلة .. بل كان يحلو له أن يستعرض أنواعا عديدة مـن السباب ، يلونها بفن ، ويقذف بها المتعرضين له.

ويحلو له هو – أيضا – أن يجعل من متاجر من يداعبونه متكأ ، ومستراحا ، فيحل عليهم في منتصف النهار ، أو قبله ، يطالبهم بالشاي ، وغير الشاي . ومن يقابله بالعناد والنكال يعرض متجره لضربات متتالية من عصاه .. ضربات في الخشب فقط ، ثم يولي هاربا وكأنه أسال دماء كثيرة .

وشوهد ذات صباح وهو يجري مسرعا بقدميه الحافيتين دائما ، وطاقيته التي تشبه « الخيمة » وعصاه الغليظة ، لا يجيب نداءات انسان ، ولا يلتفت لمعترض طريقه ، حتى وصل منتهـى « سويقة » ، ووقف عند متجر كبير ، ثم نظر في صاحبه نظرات طويلة ، وارتفع صوته بالبكاء طويلا ، ثم تحول البكاء الى ضحك صاخب متواصل لحظات من الوقت ، وتلصص حتى قارب واجهة المتجر ، وألقى بنفسه في داخله ، واتكأ على عصاه ، وقال لصاحب المتجر :

– شاي .. بسرعة أعطني شاي .

وجلس وعصاه فـي أحضانه ينتظر الشاي المطلوب . واقترب منه صاحب المتجر ، وقال له :

– لماذا بكيت ؟؟

– عندما رأيت وجهك .

– وهل وجهي يبكيك ؟؟

– نعم . ويضحكني أيضا .

– كيف ؟؟

– عندما نظرت الى وجهك في البداية ، شاهدت فيه الطيبة والحنان ، وتذكرت أمي التي ماتت منذ سنتين ، وبكيت . ثم رأيتك تضحك عليّ ، وشاهدت في ضحكتك صورة امرأة أبي ، فقد لاقيت منها العذاب الكثير . كانت تبكيني « بباكورة » ، ثم تطلب مني الضحك وأنا أبكي ، وضحكت .. كأنني ضحكت عليها .

ما هي البلهارسيا؟

« البلهارسيا » وباء تسببه طفيليات تنتقل الى دم الانسان عن طريق ملامسة الجسم مياهـا موبوءة . فالطفيليات التي تسبح في الماء تخترق مسام الجلد أثناء الملامسة ، وتدخل الى مجاري الدم لتنتقل عبرها ، وتستقر في الكبد أو الطحال أو في الأوعية الدموية المحيطة بالمثانة أو الامعاء ، حسب نوعها ، فاذا كانت الطفيليات من النوع الذي يستقر في الأوعية الدموية المحيطة بالمثانة ، سببت للمصاب آلاما واضطرابات يصحبها تغير في لون البول ، فيصبح مائلا الى الاحمرار بسبب خروج بعض الدم معه . اما اذا كانت الطفيليات من النوع الذي يستقر في الأوعية الدموية المحيطة بالامعاء ، سببت للمصاب ألما شديدا في المعدة ، يعقبه عادة اسهال ، ثم امساك .



الدكتور « ايفان اليو » أثناء جمعه عينات من الحلزون الناقل لطفيليات البلهارسيا .

كيفية انتشار مرض البلهارسيا

تضع الطفيليات بيضها في جسم المصاب ، تبعا للمكان الذي تستقر فيه ، وتخرج البيوض من الجسم مع بول المصاب أو غائطه ، فاذا ما تيسر وصولها الى الماء النقي ، بطريقة أو بأخرى ، تطورت الى يرقات دودية تسبح في الماء بحثا عن أنواع معينة من الحلزون تخترقها لتتكاثر وتتوالد ، ثم تمر في مرحلة أخرى من مراحل نموها تكون فيها أكثر تكاملا ونضوجا . وبعد ذلك تغادر اليرقات الحلزون بحثا عن الانسان . ومن المعروف أن هذه اليرقات تظل نشطة مدة يومين ، فاذا استطاعت الوصول الى جسم الانسان خلال هذه الفترة اخترقت الجلد لتبدأ دورة حياة جديدة ، والا ماتت واندثرت .

وهكذا نجد أن عدوى البلهارسيا لا تنتقل من انسان الى آخر مالم يتوفر وسيطان : الماء والحلزون. فاذا ما انعدم أحدهما ، تعذر انتقال العدوى . ومعالجة مياه الآبار القديمة والبرك والقنـوات والمستنقعات بمبيدات كيماوية خاصة يقضي على الحلزون الوسيط ، وبالتالي على طفيليات المرض .

تاريخ البلهارسيا

يكثر انتشار البلهارسيا في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية . ولعل مصر هي أقدم بلد عرف هذا المرض . فقد أشار أكثر من مرجع طبي قديم الى أن نوعا معينا من طفيليات البلهارسيا

يعرف باسم « تشستاسوما هيماتوبيوم » كان قد عثر عليه في مومياء مصرية يرجع تاريخها الى حوالي ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد .

وتذكر المصادر التاريخية ان أول اصابة بوباء البلهارسيا ظهرت بين الأوروبيين كانت بين جنود نابليون بونابرت أثناء وجودهم في مصر ما بين عامي ١٧٩٩ و ١٨٠١ ، فقد لاحظ جراح الجيش المشهور الدكتور « بارون لاري » ، ان عددا كبيرا من الجنود يشكون من وجود دم في البول . وورد في كتاب (Description De L' Egypte) الذي نشر في فرنسا آنذاك ، وصف دقيق لحلزونة البلهارسيا مع أن مؤلف الكتاب كان يجهل طبيعة العلاقة بين الحلزونة ووجود الدم في البول . وبقيت هذه العلاقة مجهولة أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى تسنى لعالم الطفيليات الالماني « ثيودور بلهارز » كشف النقاب عنها عام ١٨٤٩م . فقد تيسّر لهذا العالم زيارة مصر عام ١٨٥٠ والعمل فيها كعالم تشريح ، مما أتاح له فرصة دراسة الطفيليات واكتشاف عدد كبير منها . على ان أهم اكتشاف حققه ، هو اكتشاف طفيليات « التشستاسوما » وعلاقتها بالدم الذي يظهر في بول المصابين . وقد نوّه بهذا الاكتشاف في رسائل ثلاث بعث بها الى استاذه « فون سويبولد » عام ١٨٥١ ، شرح له فيها التفاصيل المتعلقة باكتشافه . فقام الأخير بنشر نبذ من هذه الرسائل مع تعليقاته الخاصة عليها ، في مجلة « علم الحيوان » الالمانية عام ١٨٥٣ .

وبعد سنوات قليلة تبين للدارسين ان مرض البلهارسيا لا يقتصر انتشاره على مصر فقط ، بل يمكن أن يشمل أيضا مناطق أخرى من العالم . كما أن اصابته غير مقصورة على الانسان . فقد اكتشف « كوبولد » طفيليات مشابهة للطفيليات التي اكتشفها « بلهارز » ، في جسم قرد يحتضر ، في احدى حدائق الحيوان في لندن ، فاقترح بأن يسمى هذا النوع من الطفيليات باسم « البلهارسيا » نسبة لاسم مكتشفها . ولعل أول ما لفت النظر الى انتشار البلهارسيا خارج مصر هو الطبيب البريطاني « جون هارلي » . فعلى الرغم من جهله بالمناطق الاستوائية جاءه في عيادته في لندن أحد المصابين بالبلهارسيا تبين له من سؤاله اياه انه كان يقطن في رأس الرجاء الصالح ، وانه لم يزر مصر قط . وفي الوقت نفسه ، أخبره المصاب بأن ظهور الدم في البول شائع الانتشار في منطقة رأس الرجاء الصالح . وقد تأكد الدكتور « هارلي »



تفحص عينات البول كخطوة ثانية تحت المجهر للتأكد مما اذا كانت تحتوي على طفيليات .

من صحة هذه المعلومات عن طريق طبيب آخر كان يعمل في المنطقة نفسها ، وعلى اثر ذلك قام الدكتور هارلي بفحص عينات من بول أطفال تلك المنطقة أسفرت عن وجود بيض البلهارسيا فيها .

وبقي العلم في حيرة من أمر انتقال عدوى « البلهارسيا » رغم الدراسات الواسعة التي أجريت حول هذا الموضوع ، والتي شارك فيها نخبة من العلماء فترة تربو على نصف قرن ، الى أن استطاع العالم « ليابير » استكمال معرفة مراحل نمو طفيليات البلهارسيا وتكاثرها ، والتأكد من وجود أكثر من نوع من الطفيليات المسببة لهذا المرض .

البلهارسيا في الجزيرة العربية

ذكر البكري في « معجم ما استعجم » (ان غدير « الطفيتين » الواقع شمالي المدينة المنورة ، هو أعذب ما يشرب ، الا انه يبيل الدم) . وذلك يدل على أن البلهارسيا كانت منتشرة في الجزيرة العربية منذ ذلك العهد . وهي منتشرة في المناطق المحيطة بالجزيرة ، كالعراق وسوريا والأردن ولبنان ، منذ أمد بعيد .

ومؤخرا أجري احصاء شامل للاصابات بهذا المرض في المملكة العربية السعودية دام عشر سنوات ، كشف عن أن معظم الاصابات محصورة بين أبناء المناطق الشمالية والغربية والوسطى من المملكة ، وان معدل الاصابات بين الافراد الذين تقل أعمارهم عن العشرين سنة هو أكثر مما هو عليه بين الأفراد الأكبر سنا . لذلك نظمت هذه الحملة الدراسية لمواطن انتشار هذا المرض في المملكة التي تبدأ بزيارة ينابيع المياه والبرك والمستنقعات والآبار القديمة ، وأخذ عينات من مياهها بحثا عن الحلزون الناقل للمرض . وفي حال العثور على أنواع معينة منه يجمع الفريق الصحي معلومات عن أعراض المرض ، كما يأخذون عينات من البول والغائط لمجموعة من الأطفال ، تمهيدا لفحصها وتحليلها تحت المجهر . وبعد اجراء الفحوص والاختبارات المعينة ، تسجل النتائج في سجلات خاصة يعتمد عليها في تحديد نسبة انتشار المرض في البقاع التي جرت زيارتها .

بدأت الفرقة برئاسة الدكتور « ايفان أليو » اخصائي تشخيص الأوبئة في مركز الظهران الصحي ، بهذه الدراسة الواسعة في أغسطس عام ١٩٦٥ وانتهت منها في يونيه عام ١٩٦٧ . وقد قامت خلال هذه المدة بأكثر من خمس عشرة رحلة مختلفة شملت حوالي ٦٠ في المائة من المناطق المهمة في المملكة ، كعسير ، ونجران ، ونجد ، والحجاز ، والمنطقة الشرقية ، والمنطقة الشمالية ، والربع الخالي . ويجري الآن اعداد المعلومات ، التي تم جمعها وتصنيفها ، لتبقى مرجعا معتمدا في مكافحة هذا المرض الوبيل ، وستقدم نتائج هذه الدراسة في تقرير مفصل الى وزارة الصحة . ■

عصام العماد



بعد الفحص المجهري ، يقوم الطبيب بفحص كبد الطفل لمعرفة ما اذا كانت متضخمة .

تصوير : خليل أبو النصر



الدكتور "ايفان اليو" ومساعده السيد جابر الدوسري أثناء قيامهما بجمع عينات الحلزون الناقل لوباء البلهارسيا. (راجع المقال)
تصوير خليل أبو النصر